مُحَمَّدْ عَلِي الطَّـاهِرْ

(أبـو الحسـن)

١٨٩٦ - ١٩٧٤

"لا تغرب الشمس عن شيئين: الإمبراطورية البريطانية والجريدة التي يصدرها محمد علي الطاهر"

أبو الحسن أمام مكتب "دار الشورى" بالقاهرة عام ١٩٥٤

لماذا هذا الموقع ؟

كما أن للتاريخ أثر على الأفراد ، فإن هنالك أفرادا تركوا أثرهم على التاريخ . فإذا قيل عن أحدهم في زمانه أن "الشمس لا تغرب عن شيئين: الإمبراطورية البريطانية، والجريدة التي يصدرها محمد علي الطاهر" فإن ذلك يستدعي التوقف والإصغاء .

يقص هذا الموقع قصة محمد علي الطاهر ، أبو الحسن ، وكذلك قصة قرينته ، عن طريق توفير المصادر التي يحتاج إليها الراغبين في معرفة المزيد عنه ، ولكن على الأخص عن الظروف التاريخية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ما بين ١٩١٢ و ١٩٧٤ والقضايا السياسية المحيطة به من المغرب حتى العراق ، ومن سوريا حتى أندونيسيا .أما القراء الأجانب الذين عرفوا مصر من خلال مؤلفات لورنس دوريل و كونستانتين كافافي فسوف يقفون على جانب من مصر لم يكتب عنه هذان المؤلفان المبدعان وغيرهم . حيث يوفر الموقع للقارئ والطالب والمؤرخ والأكاديمي والصحافي والأديب والديبلوماسي فضلا عن الباحثين عن المغامرات الشيقة مادة أصلية لم ينشر بعضها أو نفدت طبعاته . هذا ويوفر الموقع مادة أصلية مكتوبة بلغة ذلك العصر وأسلوبه فضلا عن روحه . وقد قام بتجميع مواد الموقع من قبل أفراد عرفوا أبا الحسن أو عاشوا بعضا من مغامراته كما اطلعوا على بعضا من المواضيع التي يطرحها هذا الموقع أو قابلوا الكثير من الشخصيات التي ظهرت في التصاوير المصاحبة .

حرص القائمين على إعداد وتطويرهذا الموقع أنه يجب عليهم أن لا يتوقفوا عند سرد قصة محمد علي الطاهر ، بل الإرتكازعلى تجربته المرة والنظر إلى المستقبل على ضوء الحاضروليس فقط على ضوء الماضي . حيث أنه لم تبقى محاولة من المحاولات التقليدية لإيجاد حل للواقع الأليم بين الفلسطينيين والإسرائيليين دون أن يتم تجربتها أو الخوض فيها طوال سنين . وقد حان الأوان لإعادة التفكير بحل لتلك القضية قد يبدو للبعض بأنه خارج عن المألوف .

تشتمل التسوية المقترحة بين الفلسطينيين والإسرائيليين المفصلة في قسم النبذة الذاتية على سبع خطوات وتتطلب من الذين سيطلعون عليها أو العمل بموجبها القدرة على الإفلات من القيود الفكرية المتزمتة . سوف يوفرهذا المدخل التدريجي للطرفان فصلا فعليا بينهما مع إعطائهما مجالا للتنفس لفترة من الزمن قد تطول أو تقصر حسب الظروف المحيطة بهما . أما بالنسبة لمرحلة السلام ، فقد تتطلب عدة سنوات قبل أن تذكر كلمة "سلام" .

إنجازات محمد علي الطاهر

صورة أبا الحسن حوالي عام ١٩١٧

يتناول هذا الموقع أحد هؤلاء الأفراد الأفذاذ الذين نجحوا في تخطي الحدود الضيقة التي يفرضها مستواهم التعليمي أومحيطهم الاجتماعي والجغرافي الضيق ، حيث كان يهرب من الكَتّاب وهو صبي ، كما طلّق ذويه بعضهما البعض وتزوج كل منهما من جهته ، ولم يمتلكا أرضاً ولا عقاراً ، ولم يكن بمقدورهما حتى أن يحلما بامتلاك سيارة . وقد عاش ومات هو الآخر دون أن يمتلك أو يتمتع بأي منها .

ورغم كل ذلك فقد أصدر جريدة كانت توزع في مختلف أنحاء العالم، وألّف ثمان كتب، ونشر مئات من المقالات . وقد نجح هذا الرجل الذي كان يسكن في شقة من غرفتي نوم لا يتعدى إيجارها الشهري عن ثلاث جنيهات مصرية في حي شبرا المتوسط في القاهرة ، نجح في أن يصبح جليساً لملوك ورؤساء جمهورية وزعماء وأغنياء وفقراء وبعض ممن كانوا على أعلى مستوى تعليمي في زمانه .

ولعل أفضل وصف له هو عنوان المقال الذي نشره نبيل خالد الأغا في مجلة قطر تحت عنوان: "محمد علي الطاهر : عاشق الحرية"[١] . فقد عشق حريته كما عشق حرّية أمّته . ولذلك كان عدوا لدودا للظلم أيا كان مصدره . فقد تصارع مع الحكومات المستبدّة والظالمة بنفس الضراوة التي تصارع بها مع المستعمرين الأجانب من انجليز وفرنسيين وإيطاليين وهولنديين . وبطبيعة الحال تصدى لبريطانيا التي جائت إلى البلاد كحليفة للأمة العربية ، فإذا بها تتحكم بها وكأنها أمة مستعمرة ، ثم قامت بتسليم وطنه الأصلي فلسطين إلى مستعمرين أوروبيين آخرين من أتباع الدين اليهودي خاصة من أوروبا الشرقية لتحويله إلى وطن قومي لهم دون غيرهم ، وعلى الأغلب لأن الإنجليز أرادوا أن يحولوا دونهم واللجوء إلى بريطانيا.

النضال في سبيل الحرية والإستقلال

كان أبا الحسن المبتكر والمحرك والمدبر والعامل المساعد وصاحب التأثير . فلم يكن عضوا في أي حزب سياسي أو نادى اجتماعي أو نقابة من أي نوع . وقد عاون غيره على تحقيق أمانيه بينما لم يحقق أمنيته هو ، فوطنه الأصلي فلسطين لا يزال البلد الوحيد في الكون الذي يحتله شعب أجنبي . لم يحمل هذا المحارب أي بندقية ، بل تسلح بقلمه الماضي ونزاهته المطلقة للحصول على ما لا يمكن شراؤه بالمال أي الإحترام والجلوس في صرح أولئك الذين عاشوا وماتوا في سبيل مبادئهم .

الملك محمد الخامس يقلد أبو الحسن
وسام العرش في القصر الملكي
بالرباط عام ١٩٦٠

لم تكن الشهرة هي مبتغاه ، كما أنه لم يكتب للتباهي بين الناس ولا ليعتاش مما يكتب . فقد كتب ونشر وأخيرا مات مناضلا سلاحه قلمه . وتلخصت حياته في هدف واحد فقط : ألا وهو حرية قومه ووطنه العربي . حيث كان يرى أن حرية شعبه تزامل حرية الشعوب الأخرى أيا كان أصلها ومنشئها . هذا ولم يكن أبا الحسن عضوا في أي حزب سياسي أو نادي اجتماعي أو جمعية أياً كان نشاطها .

وكما جرت العادة فقد دفع هو وأسرته ثمناً باهظاً لتفانيه . من سجون وتشريد وقصر ذات اليد والهجرة شبه الإجبارية . إلا أن جهوده كانت دائماً موقع تقدير من الجميع ، ولابد أن كفاحه في سبيل تحرير بلاده كان يعني الكثير حتى لأعدائه الذين تفانوا من جهتهم في ملاحقته ولكن لتحقيق مآربهم الشخصية وتطلعاتهم المهنية . وفي نهاية الأمر جرى الإعتراف بأفضاله رسمياً وبكل حرارة وصدق من قبل البعض قبل أن يدركه الموت وإن كان دائماً محاطاً بالمحبة والإحترام من الجميع . ولا تزال الصحف العربية تذكر قصصه وتشير إلى كتاباته إلى يومنا هذا .

الموقع و زائريه

يسعى القائمون على إعداد وتطوير هذا الموقع غير الساعي إلى الربح إلى نقل تراث أبا الحسن من المخطوطات والمطبوعات الورقية إلى المحفوظات الالكترونية ، وقد حرصوا على أن يكون الموقع موقعاً حياً ومتطوراً لمراعاة متطلبات الانتاج وتوفر الاعتمادات اللازمة . وسيتم تنقيح الموقع والإضافة إلى محتوياته مع توفر ما هو قيد الإعداد من مواد ، خاصة بعد القيام ببحث في الملفات والأضابير الأرشيفية البريطانية والفرنسية .

ومن الجدير بالذكر أن جميع المواد المتوفرة في الوقت الحاضر هي باللغة العربية . وسوف تترجم نخبة من المواد قدر الإمكان في الوقت الحاضر إلى اللغتين الانجليزية والفرنسية إلى أن يصبح بالمقدور متابعة مراحل المشروع المقبلة . هذا ويمكن الإطلاع عبر هذا الموقع على مجموعات الجرائد الثلاث التي نشرها محمد علي الطاهر، كما يمكن الإطلاع على مقتطفات فقط من الكتب عبر موقع Google Books.

وختاماً ، لعله من المفيد أن نذكر بأن محتويات هذا الموقع ليست ملكاً لفرد أو للجنة . فالموقع وما يتضمنه يعتبر تراثاً لكل من لا يزال يناضل في سبيل حريته وتحرير بلاده وكل من يصارع الظلم والطغيان . وإن بدى الأمر مثيرا للإستغراب فإن هذا الموقع يشكل أيضا جزءا من تاريخ أعدائه . فالموقع وما يتضمنه هما في نهاية الأمر ملكاً لنا جميعاً .

إذا شاء القراء أن ينزلوا أي صور ، أو نصوص من مواد هذا الموقع أو من الجرائد التي أصدرها محمد علي الطاهر أو الكتب أو المقالات التي نشرها ، أن يتفضلوا شاكرين بمجرد ذكر المصدر أي eltaher.org ، وذلك كي تعم الفائدة على كافة القراء في المستقبل.

فهرس محتويات النبذة الذاتية

	رقم الصفحة
نشأة محمد علي الطاهر	صفحة ١
الإنتقال إلى مصر	صفحة ٣
أول جريدة	صفحة ٤
التعريف بقضية فلسطين وقضايا التحرر في العالم العربي	صفحة ٦
أنت لست فلسطينياً!	صفحة ٩
سجن الأجانب	صفحة ١٠
خيبة الأمل بعد سقوط فلسطين	صفحة ١١
حكومة عموم فلسطين ١٩٤٨	صفحة ١٢
معتقل هاكستب	صفحة ١٣
"دار الشورى"	صفحة ١٤
أم الحسن	صفحة ١٦
حركة الضباط الأحرار في مصر	صفحة ٢٠
في دمشق	صفحة ٢١
في بيروت	صفحة ٢٤
انتهاء الأجل	صفحة ٢٥
مكانة محمد علي الطاهر	صفحة ٢٦
تقدير جهاد محمد علي الطاهر	صفحة ٢٧
محمد علي الطاهر والواقع العربي	صفحة ٢٩
نظرة من زاوية مختلفة نحو حل للنزاع بين اسرائيل والفلسطينيين	صفحة ٣١
مراحل السلام السبع	صفحة ٤٢
مواقف ومبادرات	صفحة ٤٦
حادثة بريد نابلس	صفحة ٤٧
البحث عن الحبيب بورقيبة في القاهرة	صفحة ٤٨
تهريب الأمير عبد الكريم الخطابي من قبضة فرنسا	صفحة ٥٤
كتب وجرائد من تأليف محمد علي الطاهر	صفحة ٦٠
كتب وأبحاث عن محمد علي الطاهر	صفحة ٦٣
ملحق رقم ١ – وعد بالفور	صفحة ٦٥
ملحق رقم ٢ – الأمير شكيب أرسلان	صفحة ٦٦
ملحق رقم ٣ – أحمد حلمي باشا	صفحة ٦٧
ملحق رقم ٤ – وديع فلسطين	صفحة ٦٨
ملحق رقم ٥ – علي أحمد باكثير	صفحة ٦٩
ملحق رقم ٦ – القائد عبد الله التل	صفحة ٧٠

© Eltaher.org

ملحق رقم ٧ – الحاج أمين الحسيني صفحة ٧١
ملحق رقم ٨ – عبد القادر الحسيني صفحة ٧٢
مراجع وحواشي صفحة ٧٣

مُحَمَّدْ عَلِي الطَّـاهِرْ

(أبـو الحسـن)

١٨٩٦ - ١٩٧٤

"لا تغرب الشمس عن شيئين: الإمبراطورية البريطانية
والجريدة التي يصدرها محمد علي الطاهر"

نشأة أبو الحسن

من المتفق عليه أن أبو الحسن ابن عارف الطاهر وبديعة كردية قد ولد عام ١٨٩٦ في مدينة نابلس بفلسطين عرين آل الطاهر . ويروى بأنهم من قبائل الجرادات المتحدرين من عرب جهينة الذين تعود أصولهم إلى شمال غرب الجزيرة العربية . وكان واحدا من أربع أبناء وثلاث بنات بعضهم أشقاء والبعض الآخر غير أشقاء . وخلافاً لما هو متداول ، لم يدخل أبا الحسن ، كما كان يطلق عليه قبل زواجه وقبل أن يرزق بابنه الحسن ، لم يدخل المدارس قط ، بل جل ما تعلمه جاء من الكُتّاب الذي ألحقه به والديه في مدينة يافا حيث نشأ . و من القصص التي كان يرويها لابنه الحسن أنه كان كثيرا ما يهرب من الكُتّابْ لمشاهدة لاعبي "الضاما" في المقاهي المجاورة في حي المنشية و حي العجمي .

مدينة نابلس في الخمسينات

أبو الحسن في شبابه
القاهرة ٥ مايو ١٩١٢

كانت بلاد الشام[٢] في تلك الأيام تسعى للاستقلال من الدولة العثمانية التي كانت هي ذاتها في خضم حركة تغيير داخلية شاملة إثر انحسار أهميتها بعد ٦١١ سنة كامبراطورية ذات شأن . وهنا بدأ محمد علي الطاهر مساهمته الفكرية فيما يتناول قضايا الساعة وأصبح قلمه سلاحه ووسيلة الكفاح والجهاد . غير أن بُعد نظره جعله يدرك مبكرا أن كتاباته لن تصل إلى آذان الجماهير العربية وزعمائهم سوى انطلاقا من عاصمة عربية ذات وزن ، وهذا ما دفع أبو الحسن إلى مغادرة فلسطين متجها إلى مصر التي كانت عندئذ قد انفصلت عمليا عن الدولة العثمانية وأصبحت شبه مستقلة وذات شأن على المستوى العربي والإسلامي والأوروبي .

مدينة يافا الفلسطينية حيث نشأ أبو الحسن

الإنتقال الى مصر

وفد أبو الحسن إلى بورسعيد بمصر قادما من يافا لأول مرة في مركب صيادين في مارس (آذار) ١٩١٢، أي في أواخر عهد الخديوي عباس حلمي الثاني[٣]. في عام ١٩١٥، أي بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وبالتحديد يوم ١٥ سبتمبر (أيلول) ١٩١٥ ، أودعته الحكومة المصرية سجن الاسكندرية ثم سجن الجيزة عند كوبري عباس (كوبري الجيزة الآن) بالقرب من القاهرة بإيعاز من السلطات البريطانية التي كانت هي الحاكم الفعلي في القطر المصري ، وذلك بسبب نشاطه الوطني خاصة إثر قيام الانجليز باحتلال فلسطين بعد انتزاعها من الدولة العثمانية خلال الحرب . ولم يفرج عنه سوى في عام ١٩١٧ . بعد إطلاق سراحه بقي أبو الحسن في القاهرة ليشرح ظلامة بلاد الشام في الصحف المصرية وللمسؤولين المصريين ، بعد أن تقاسمتها بريطانيا وفرنسا وفق معاهدة سايكس – بيكو Sykes-Picot إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وليُنَبّه إلى نية الحكومة البريطانية تسليم فلسطين إلى الحركة الصهيونية الأوروبية وتحويلها إلى وطن قومي لليهود إثر الكشف عام ١٩١٧ عن وعد بالفور The Balfour Declaration .

لجأ أبو الحسن في جهاده إلى قلمه الذي كان معروفا في بلاد الشام ، حيث كان يراسل عددا من جرائد دمشق وبيروت من يافا خلال شبابه المبكر في فلسطين . ففي عام ١٩١٤ أي قبل انكشاف أمر وعد بالفور ، نشرت له جريدة "فتى العرب" الصادرة في بيروت مقالا يحذر فيه من عزم الحركة الصهيونية في أوروبا على إنشاء وطن قومي لليهود[٤] في فلسطين ، وتنبأ بأن ذلك الوطن سيطلق عليه اسم اسرائيل . وتابع نشر مقالات تصف الأوضاع في فلسطين تحت الحكم العسكري البريطاني . وكانت بعض مقالاته تنشر أيضا في جرائد القاهرة التي كانت تتمتع في ذلك الزمان ، أي في عهد الإستعمار ، بقدر كبير من حرية الفكر نتيجة التنوع العرقي في مصر وانفتاحها على العالم .

ولتأمين لقمة العيش لدى بداية إقامته في مصر فتح دكانا متواضعا في حي سيدنا الحسين القريب من الجامع الأزهر كان يبيع فيه ما يستورده من نابلس من زيت الزيتون الذي كانت تشتهر به تلك المنطقة . ومع مرور الزمن أضحى هذا الدكان ملتقى الوطنيين المصريين وأقرانهم الذين لجئوا الى مصر ، أرض الكِنانة ، من مختلف أنحاء العالمين العربي والإسلامي الرازحين تحت شتى أنواع الاستعمار الأجنبي .

أول جريدة

لكي يتمكن من مواصلة جهاده القلمي بصورة مكثّفة بعد أن تحسن دخله بعض الشيء ، استحصل أبا الحسن على امتياز لنشر جريدة سياسية اسبوعية تصدر في القاهرة أطلق عليها اسم جريدة "الشورى" ، وصدر العدد الأول منها بتاريخ ٢٢ اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٢٤ . وكان شعارها في بادىء الأمر "جريدة تبحث في شؤون سوريا (فلسطين ، سورية ، لبنان ، وشرق الأردن)" ، ثم استبدله إلى "جريدة تبحث في شؤون الشعوب المظلومة والأمم المستعبدة" ، ثم غيره مرة أخرى ليصبح "جريدة تبحث في شؤون البلاد العربية والأقطار المظلومة".

الشورى

العدد الأول من جريدة الشورى
٢٢ اكتوبر ١٩٢٤

أضحت تلك الجريدة لسان الحركة الوطنية العربية في المشرق والمغرب وغيرها من بلدان العالم الاسلامي مثل الهند وأندونيسيا ، بل وبعض الدول الأفريقية مثل السودان وجزيرة زنجبار التي أصبحت جزءا من تانزانيا منذ الستينات . هذا في الوقت الذي كانت الصحف الوطنية في تلك البلدان مُكَمّمة بفعل رزوحها تحت نير الاحتلال البريطاني أو الفرنسي أو الايطالي أو الهولندي . وكانت الجريدة تنشر كل ما يصلها من مراسليها في تلك البلدان من أخبار عن تصرفات الاستعمار وأسماء الخونة المتعاملين مع المستعمرين أيا كان شأنهم أو مراكزهم . كما كانت تنشر أسماء الشهداء والمتبرعين للقضايا الوطنية والمشاركين في المناسبات الوطنية والموقّعين على العرائض المطالبة بالحرية والاستقلال . هذا الى جانب ما تنشره من تعليقات وتحليلات وأشعار بل وحتى الطرائف والمفارقات .[٥]

يمكن الإطلاع على مجموعة جريدة "الشورى" بكاملها وكذلك الجرائد الأخرى التي أصدرها أبو الحسن بمجرد نقر هذه الوصلة أو مفتاح "مؤلفات" في أعلى الصفحة .

أما الشيء الوحيد الذي لم تكن الجريدة تنشره فهي الإعلانات التجارية على أشكالها كي لا تكون رهنا لإرادة أصحاب تلك الإعلانات ولكي تحافظ على استقلالها الفكري باستثناء عدد قليل جدا من الإعلانات وافق أبو الحسن على نشرها رغبة منه في مساندة المشاريع الوطنية مثل "شركة مصر للغزل والنسيج"[٦] . ولذلك كانت موارد الجريدة المالية محدودة للغاية وتقتصرعلى ما يرسله مريدي الجريدة من اشتراكات ، وكم منهم من كان يتسلم الجريدة دون أن يدفع ما هو مستحق عليه !

طلعت حرب باشا
مؤسس مجموعة شركات بنك مصر عام ١٩٣١

سرعان ما تنبه المستعمرون لهذه الصحيفة ، فحاربوها مباشرة أو عن طريق عملائهم من عرب ومسلمين ونجحوا في تعطيلها ، وخاصة سلطات الإنتداب البريطاني التي كثيرا ما كانت تمنع دخول الجريدة إلى فلسطين . غير أن أبو الحسن تغلّب بشتى الطرق على هذه المحاولات لمنع جريدته من الظهور ومصادرة أعدادها التي كانت توزّع في ذلك الوقت في مصر وغيرها من البلدان.

وقد تحايل أبو الحسن على سلطات الرقابة البريطانية بعدة وسائل ، فكان يُصدرالجريدة أحياناً بأسماء أخرى منها "المنهاج" و"الناس" . وأحيانا كان يُغلّف الجريدة بصفحات من جرائد القاهرة الصادرة بلغات أجنبية مثل "The Egyptian Gazette" , و "Le Progrès Égyptien" أو غيرها من الجرائد غير العربية . كما كان يرسل الجريدة أحيانا عن طريق أصدقاء ومعارف وأقارب ومريدين في أوروبا حيث يقومون بتغليف نسخ الجريدة بجرائد تلك البلدان ثم يرسلونها بدورهم بالبريد إلى مختلف بلدان العالم العربي والإسلامي المُستَعْمَرة .

أما العقبة الأخرى التي كانت تواجهها الصحافة الوطنية فكانت عملية استيراد ورق الطباعة التي كانت تحتكرها فئات معادية للخط الوطني المصري والعربي وبالذات فيما يتعلق بقضية فلسطين مثل مساندي الحركة الصهيونية . وهكذا تمكن أولئك من كم الأفواه في مصر وفلسطين عن طريق رفض بيع ورق الطباعة لمن لا يستسيغون سياستهم .

كما لجأ ذات مرة إلى طبع مغلفات صفراء مثل تلك التي تستعملها الحكومة البريطانية وطبع عليها عبارة "On His Majesty's Service" . حيث ضَمّنَ جريدته داخل المغلفات وأودعها البريد . رغم تلك القيود وأحيانا المصادرات فقد قيل وقتها " أن الشمس لا تغرب عن شيئين: الإمْبراطورية البريطانية والجريدة التي يصدرها محمد علي الطاهر" .

التعريف بقضية فلسطين وقضايا التحرر من الإستعمار في العالم العربي

قبل أن يصدر "الشورى" أنشأ أبو الحسن مكتب الإستعلامات العربي الفلسطيني وأسس اللجنة الفلسطينية في مصر عام ١٩٢١ . وكان مقر مكتبه المعروف باسم "دار الشورى" في أول الأمر في ٣١ شارع عبد العزيز المتفرع من ميدان العتبة الخضراء بالقاهرة ، ثم انتقل إلى عمارة مانوساكيس بشارع الملكة نازلي (رمسيس فيما بعد) رقم ١١٩ .

مكتب أبو الحسن القديم بشارع عبدالعزيز في القاهرة عام ١٩٣٩

وكانت اللجنة المكونة من فلسطينيين ومصريين وعرب آخرين منهم كُتّاباً وعلماء وأدباء وشعراء وصحافيين ومحامين ، كانت تقوم بإطلاع الرأي العام المصري والعربي والإسلامي على أحوال الحركة الوطنية في تلك البلاد عن طريق إصدار بيانات ونداءات ورسائل استنكار ، فضلاً عن تعليقات تتناول الأحداث المحلية والعالمية . وهكذا أضحى أبو الحسن نقطة الوصل بين العالمين العربي يعرّف أحدهما على الآخر ويطلعه على شؤونه وشجونه .

© Eltaher.org

إحدى مطبوعات "دار الشورى" حول ثورة فلسطين الكبرى
١٩٣٦ - ١٩٣٩

كما استطاع أبو الحسن من خلال مقالاته التي نشرتها الجرائد المصرية أن يخلق وعياً بالقضية الفلسطينية ، ويصحح الكثير من الأخطاء المتداولة ، ويرد على الكثير من المغالطات والإفترائات التي كانت تزخر بها بعض الصحف المصرية المعادية للقضية الفلسطينية بسبب ملكيتها لغير مصريين .

ساهم أبو الحسن أيضا في الإعداد للمؤتمر الاسلامي العام الذي انعقد في القدس عام ١٩٣١ والذي سرد وقائعه والدور الذي لعبه في كتاب "نظرات الشورى" الذي أصدره في القاهرة عام ١٩٣٢.

بطاقة عضوية أبو الحسن في المؤتمر الإسلامي العام بالقدس عام ١٩٣١

© Eltaher.org

صورة جامعة لمندوبي المؤتمر الإسلامي العام الأول في القدس عام ١٩٣١

وإلى جانب العالمين العربي والإسلامي ، كان نشاطه يغطي الأمور التي تهم العرب في المهاجر الأفريقية والأمريكية والأوروبية ، الأمر الذي حمل مكرم عبيد باشا ، أحد كبار زعماء حزب الوفد المصري ، بوصفه بأنه "سفير مصر في الأقطار العربية" . ومن الجدير بالذكر أنه إلى جانب الوجيه اللبناني الدرزي والوطني الإسلامي الأمير شكيب أرسلان ، كان أبا الحسن الكاتب والصحفي المشرقي الوحيد الذي ركز اهتمامه أيضاً على مجريات الأحداث في المغرب العربي ونضال كل من تونس والمغرب والجزائر ضد الاستعمار الإستيطاني الفرنسي، وصراع ليبيا مع الاستعمار الإيطالي الذي كان أسوأ من أقرانه .

بطاقة أبو الحسن الصحفية لعامي ١٩٣٩ - ١٩٤١

وتغلباً على منع جريدة "الشورى" عام ١٩٣١ أصدر أبو الحسن الجريدة بأسماء أخرى هي "الجديد" و"الشباب" التي صدرت عام ١٩٣٧ و"العلم المصري" التي صدرت عام ١٩٣٩ . وكان امتياز إصدار جريدتي "الجديد" و"الشباب" ملكا للدكتور محمود عزمي باشا الذي كان وطنياً مصرياً معروفاً ، وأصبح فيما بعد مندوبا لمصر لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة . وقد تنازل الدكتور محمود عزمي عن امتياز جريدته لأبا الحسن "كي يصدرها كما يشاء حتى لا يسكت صوته المدافع عن الحقوق العربية جميعا" ، حسبما كتب له في خطاب بتاريخ ٢٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٣٧

غير أن السلطات المصرية في تلك الأيام رفضت إعادة امتياز "الشورى" إليه كما عطّلت جريدة "الشباب" . فأصدر جريدة "العلم المصري" التي قدمها له صاحبها عبدالقادر التومي أسوة بما فعله الدكتور محمود عزمي باشا بالنسبة لجريدة "الشباب" . وكان جورج طنّوس قد قدم له جريدته "الرقيب" ، وتلاه الاستاذ حسين شفيق المصري صاحب جريدة "الناس" فالاستاذ الشيخ ابراهيم اطفيش الجزائري صاحب جريدة "المنهاج" فالاستاذ محمود أبو الفتح صاحب جريدة "الجمهور" قد سارعوا بتقديم جرائدهم له مجّاناً كي يواصل نشر ما يريد نشره .

هذا وكان أبا الحسن قد أعدّ كتابا يتناول أحداث ثورة ١٩٣٦ المعروفة "بثورة فلسطين الكبرى" ، أطلق عليه اسم "فلسطين أرض الشهداء" ليوزع مجانا . غير أن البوليس صادر الكليشيهات والملازم المطبوعة ولم يصدر الكتاب .

© Eltaher.org

أنت لست فلسطينيا!

كان أبو الحسن يتردد كثيرا على فلسطين وبلاد الشام خلال وجوده في مصر وذلك بغية زيارة والدته وأشقائه وشقيقاته إلى جانب إجراء إتصالات مع الحركات الوطنية والفكرية في تلك البلدان . وكانت الحكومة البريطانية في تلك الأثناء تعد لإقامة المهاجرين اليهود الذين كانت تأتي بهم إلى فلسطين من مختلف أنحاء العالم الغربي عملا بوعد بالفور ، وخاصة أولئك منهم الهاربين من المظالم المؤسفة والقتل في دول البلقان وروسيا ووسط أوروبا ، حيث كانت تأتي بهم إلى فلسطين على الأغلب لتحول دون هجرتهم إلى بريطانيا[٧] . وبطبيعة الحال كان كل ذلك يجري دون استئذان أو استشارة أهل فلسطين أو حتى إعلامهم !

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الزعماء السياسيين الإنجليز المسيحيين كانوا يعتقدون بأن العرب واليهود أبناء عمومة ولن يصعب عليهم العيش معا. على أن الأمر ليس بهذه البساطة حيث أن اليهود الذين كانت تأتي بهم بريطانيا إلى فلسطين هم من أهل أوروبا الشرقية الذين لم يكن لهم أي ارتباط عرقي مع سكان منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط. فضلا عن أن غالبيتهم الساحقة كانت من "الأشكناز" الذين تختلف تقاليدهم الدينية عن تلك التي كان يعتنقها معظم سكان فلسطين من اليهود العرب الذين كانوا من "السَفراد" و "السامريين" وهم أكثر قربا في عقائدهم وتقاليدهم من العقيدة الإسلامية والتقاليد العربية. كما أن لكل من العقيدتين اليهودية والمسيحية تأثير كبير على الإسلام ، الأمر الذي يجعل هنالك تشابه ليس بالقليل بينهم من الناحية الدينية ، إلا أن هنالك عدة فوارق هامة أيضا. وتجدر الإشارة إلى أن سكان البلاد من الفلسطينيين اليهود كانوا يعيشون بوئام مع باقي مواطنيهم الفلسطينيين إلى أن حطّ بينهم المستوطنون الأوروبيون اليهود الذين جلبتهم بريطانيا والذين تسلحوا بهدف الإستيلاء على فلسطين .

بعد أن وفرت بريطانيا الإقامة الدائمة للمهاجرين اليهود في البلاد ، أعلنت حكومة فلسطين البريطانية "قانون الجنسية الفلسطينية" الذي وضعته في الأساس لتجنيس المهاجرين اليهود كي توفر لهم الإطار القانوني لإقامتهم فيها . وحيث أن أهل فلسطين الأصليين من يهود ومسيحيين ومسلمين المقيمين في وطنهم ، لم تكن لديهم حاجة إلى تصاريح بالإقامة أو شهادات جنسية أو معاملات تجنيس وهم في وطنهم ، وجلهم أساسا من مواطني الدولة العلية العثمانية . وهكذا أضحت حكومة فلسطين الإنجليزية تصدر جوازات سفر فلسطينية لأولئك المهاجرين اليهود ولمن ترضى عنهم من المواطنين الفلسطينيين.

أبو الحسن مغادرا فلسطين لآخر مرة في محطة القطار بيافا عام ١٩٣٥

خلال إحدى زياراته لفلسطين قام أبو الحسن بتقديم طلب للحصول على جواز سفر فلسطيني أسوة بغيره ، غير أن طلبه رُفِض من لدن إدارة الجوازات والجنسية الفلسطينية التي كانت تحت سيطرة الإنجليز بحجة أنه "ليس فلسطينيا"، وأشير له بأنه ينبغي عليه أن يتقدم في أول الأمر بطلب للحصول على الجنسية للنظر فيه ، ومن ثم يُمنح جواز سفر إذا ثبتت أحقيته .

وبطبيعة الحال رفض طلبه وهو ابن فلسطين أبا عن جد كما أن ذويه كاوا يعيشون في البلاد في ذلك الوقت . وكانت حجة الإنجليز أنه غير مقيم في فلسطين ، هذا في الوقت الذي كان طرف ثالث ، هو بريطانيا ، يتبرع فيه بإقامات وجنسيات وجوازات لمواليد من بولندا وألمانيا وروسيا ورومانيا وغيرهم من المهاجرين اليهود الذين لم يكن يربطهم أي رباط عضوي بفلسطين . وإذا كان الدين هو المقياس الوحيد للربط بين اليهود وفلسطين ، فالمسيحيون والمسلمون مرتبطون هم أيضا بهذا البلد لنفس الوازع الديني .

ويمكن الإطلاع على فصول وملابسات تلك القصة في كتاب "نظرات الشورى" المذكور آنفاً . كما يتضمن الكتاب أيضا عدة فصول تناولت الألاعيب والمراوغات القانونية والتعسفية التي اتبعتها سلطات الإحتلال البريطانية نحو عدم الاعتراف به كمواطن فلسطيني ورفض السماح له بالاقامة مع ذويه في فلسطين في حين أنها كانت تمنح حق الاقامة لكل يهودي أوروبي تطأ قدميه أرض فلسطين .

سجن الأجانب

بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ وإعلان حالة الطوارئ في مصر تحت قانون الأحكام العرفية ، تحسب أبو الحسن للقيود التي ستفرض نتيجة لذلك ، فأوقف إصدار جريدة "العلم المصري" بنفسه وحلّ اللجنة الفلسطينية وألغى مكتب الاستعلامات الفلسطيني وتوقف عن كل نشاط سياسي . وبالرغم من ذلك طلبت السلطات البريطانية من علي ماهر باشا رئيس الوزارة المصرية آنذاك اعتقال أبا الحسن . لكن علي ماهر باشا رفض طلبهم ، غير أنهم أعادوا الكَرّةْ وحققوا ما يرمون إليه لدى قيام وزارة حسين سري باشا .

(x) سجن الأجانب بالقاهرة عام ١٩٤١ ، وقد أشيرت إلى زنزانة أبو الحسن بعلامة

في ٢١ سبتمبر (أيلول) ١٩٤١ قبضت الشرطة المصرية على محمد علي الطاهر وأودعته سجن الأجانب في القاهرة الكائن وقتها مقابل جامع أولاد عنان في شارع رمسيس ، غير أنه مرض في السجن فنُقل إلى مستشفى الدمرداش حيث أُبقي تحت حراسة رجال البوليس . إلا أنه تمكن من الهرب من المستشفى[٨] في أواسط ١٩٤١ واختفى مدة أحد عشر شهرا تنقل أثنائها في مختلف أنحاء القطر المصري وهو متنكر إلى أن أُقيلت حكومة حسين سري باشا في ٥ فبراير (شباط) ١٩٤٢ ، وتم تكليف الزعيم الوطني مصطفى النحاس باشا بتأليف وزارة جديدة .

وهنا توجه أبو الحسن إلى رياسة الوزراء وهو متنكر بعباءة أمير عربي لإبعاد عيون البوليس والمباحث عنه وسلّم نفسه إلى النحاس باشا الذي كان يعرفه معرفة جيدة وذلك إثر مغامرات شيقة ومثيرة شاركت فيها حرمه أم الحسن . وقد أطلق النحاس باشا سراحه فورا وعاد أبو الحسن الى شقته في شارع شبرا بالقاهرة .وقد قام أبو الحسن بسرد تلك المغامرات بكامل تفاصيلها السينمائية منذ اعتقاله وحتى أن سلّم نفسه في كتابه "ظلام السجن" الذي صدر في القاهرة عام ١٩٥١ .

أبو الحسن متخفيا خلال سنوات الهرب ١٩٤١ - ١٩٤٢

خيبـة الأمـل بعد سقوط فلسطين

تركت نكبة فلسطين في نفس أبا الحسن مرارة ما بعدها مرارة وأسى وحزن لا مثيل لهم . وهو أمر ليس بالمستغرب عندما يفقد أي إنسان ، بل وأي كائن حي سواء كان إنسان أو حيوان أو نبات ، موطنه وتراثه ، خاصة إذا جاء ذلك نتيجة تجمع عوامل التفريط واللامبالاة والقسر والخيانة والظلم ، وعلى الأخص بعد أن كرّس حياته للتحذير من تلك الواقعة .

فلما انتهت فلسطين عمليا عام ١٩٤٨ بقيام دولة اسرائيل ثم إلحاق ما أصبح يسمى بالضفة الغربية بالمملكة الأردنية الهاشمية ، وبوضع قطاع غزة تحت الحكم العسكري المصري ، لم يتبقى من وطن الشعب الفلسطيني خلال بضعة أسابيع سوى شعبا جله من اللاجئين لا يزال مشرّدا فكرياً وجسدياً حتى يومنا هذا . وتحول شعب فلسطين بفعل قهر اسرائيل اللاإنساني من جهة ، ثم لقصر نظر بعض القيادات الفلسطينية غير المؤهلة حتى يومنا هذا في تلبية احتياجات الشعب الفلسطيني الضرورية ، وتجاهل أصدقائه وعدم جديتهم في إدارة قضية فلسطين وفقدان من كان يمكنهم أن يكونوا حلفاء طبيعيين بسبب سوء التخطيط والمزايدات بين القيادات من جهة أخرى ، تحول شعب فلسطين من شعب مسالم لا يؤذي أحداً ، إلى شعب مقاتل وعنيف وما باليد حيلة .

في عام ١٩٤٨ تحول شعب فلسطين من شعب مسالم إلى أمة من اللاجئين تعيش في صحراء جغرافية و سيكولوجية

© Eltaher.org

حكومة عموم فلسطين ١٩٤٨

لما قام صديقه ورفيق جهاده أحمد حلمي عبد الباقي باشا بتشكيل "حكومة عموم فلسطين" في غزة بقرار من جامعة الدول العربية عام ١٩٤٨ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه مما تبقى من فلسطين ، أصدر له جواز سفر فلسطيني يحمل الرقم (١)

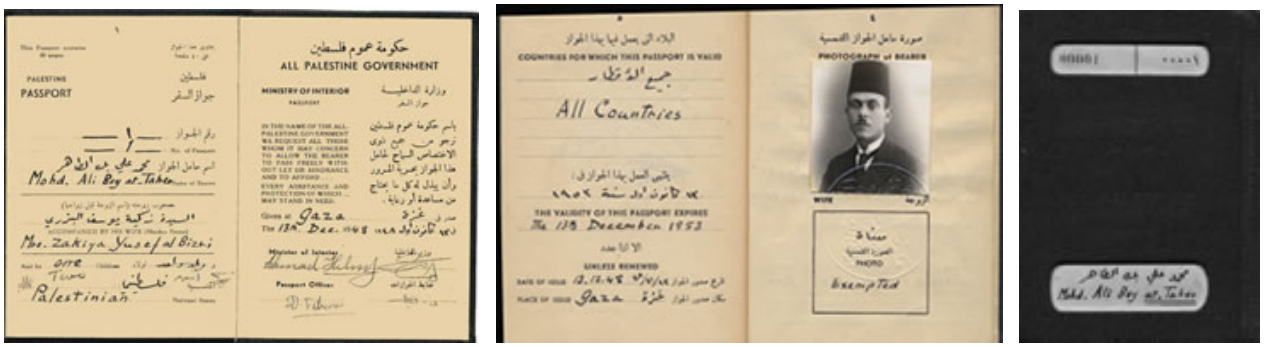

ثم دعاه للمشاركة في الحكومة وانتقاء أي وزارة يختارها . وتبع ذلك عام ١٩٤٩ بمنحه جواز سفر ديبلوماسي رقم (١١) .

تقبّل أبو الحسن الجوازين ورحب بهما رغم قناعته التامة بأنه لن يعترف بهما أحداً بدءا من الدول أعضاء الجامعة العربية التي أوصت في الأساس بتشكيل حكومة عموم فلسطين التي أصدرت تلك الجوازات ، كما اعتذر عن قبول أي مركز في حكومة عموم فلسطين ولو كان منصباً شرفياً ، كي لا يفقد حرية حركته وقلمه .

معتقل هاكستب

يوم ٢١ يوليو (تموز) ١٩٤٩ أصدر ابراهيم عبد الهادي باشا بوصفه رئيس الوزراء والحاكم العسكري العام في مصر أمرا عسكريا باعتقال أبا الحسن وايداعه السجن نتيجة قيامه بفضح وقائع ضياع فلسطين وتوجيهه اللوم إلى كل من المسؤولين الفلسطينيين والعرب على حد السواء .

اقتيد أبو الحسن من منزله بشارع شبرا إلى كراكون ، أي قسم بوليس ، روض الفرج ثم نقل الى معتقل هَاكْسْتِبْ[٩] . غير أنه أُطلق سراحه يوم ١١ أغسطس (آب) بأمر من حسين سري باشا الذي خلف ابراهيم عبد الهادي باشا على رأس الوزارة . وقد سجل أبو الحسن وقائع اعتقاله بتفاصيلها الدقيقة في كتاب "معتقل هاكستب" الذي صدر في القاهرة عام ١٩٥١ والذي تضمن وصفاً دقيقا وصورا لحياة المعتقلين اليومية وجلهم من الوطنيين الغيورين على وطنهم ، وكان من بينهم وقتها جماعة الإخوان المسلمين وبعض أعضاء الحزب الشيوعي المصري (الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني أو "حدتو" كما كانت تسمى) ، وغيرهم . كما سرد في الكتاب ملابسات حبسه إلى أن أطلق سبيله وأسبابها ، وملاحظاته وهو في المعتقل ، فضلا عن أوضاع العالم العربي وحالة جامعة الدول العربية .

معتقل هاكستب عام ١٩٤٩

عامل مسؤولي المعتقل المعتقلين السياسيين معاملة مقبولة خالية من الصلافة . وقد سُمح لأسرة أبا الحسن بزيارته مرة واحدة . ولما عرف قائد المعتقل بأن ابن أبا الحسن سوف يصطحب الزائرين قام باستقبال الزوار ، ومنهم الحسن وكان يبلغ وقتها ست سنوات من العمر ، استقبلهم في مكتبه كي يحول دون أن يرى الصبي أباه في بلوك المساجين !

© Eltaher.org

"دار الشــورى"

كانت دار جريدة "الشورى" في أثناء صدورالجريدة سنة ١٩٢٤ والسنوات التالية مرجعا يستأنس فيه الغريب النازح عن أوطانه المستعبدة أو المستعمرة . حيث كان المنكوبين والمظلومين والمطاردين الذين انتزعت أوطانهم منهم وفقدوا حريتهم ويطلبون الاستقرار والأمان كانوا يأتون إلى مصر البلد المضياف والمرحب بالزائر ومجير المظلوم ، ويلتقون حول بعضهم البعض ، ويجعلون من "دار الشورى" مكانا يجتمعون فيه بطبيعتهم ، وبدون مواعيد سابقة . وكان الجميع يعرف أن باب مكتب أبا الحسن كان مفتوحاً لهم يومياً من السابعة حتى التاسعة مساءً ، بل وبإمكانهم أن يضبطوا ساعاتهم على مواعيد أبو الحسن الدقيقة . كان المرء يرى عند أبا الحسن زعماء من سورية يمثلون مختلف الأحزاب في سنة ١٩٢٥ وما بعدها ، أي قبل سنوات عديدة من إنشاء "دار الشورى" ، يلتقون مع زعماء من فلسطين عندما يغادروا أوطانهم بضغط من الاستعمار الذي شرّدهم .

أبو الحسن مع الوجيه اللبناني الدرزي والوطني العربي الأمير شكيب أرسلان مع مؤلف كتب الأطفال المصري كامل كيلاني والأديب المصري محمد الههياوي، رئيس تحرير جريدة الأمة . لاحظ قطة أبا الحسن جالسة فوق جهاز الراديو في مكتب دار الشورى القديم بالقاهرة عام ١٩٣٩

كما كنت ترى فيها أحراراً من العراق كالشاعر جميل صدقي الزهاوي ، والمؤرخ أحمد عزت الأعظمي ، والمؤرخ السياسي رُفّائيل بطي ، والزعيم اليمني أحمد محمد نعمان ، الذي أصبح فيما بعد رئيسا لوزراء اليمن ، ومجاهدي مسلمي الهند كمولانا شوكت علي ، والحكيم أجمل خان ، وغيرهم من الذين جاءوا من الشرق الأقصى كالدكتور سطومو ، ورفاقه من مجاهدي أندونيسيا مثل الجنرال عبد الحارس ناسوتيون ومحمد حتى نائب رئيس الجمهورية ، وأحمد سوبارجو ، ومحمد رشيدي ، وزين حسن اللذان أصبحا بعد الاستقلال سفراء لأندونيسيا في القاهرة ، وعبد الجليل حسن الذي أصبح مفتي للملايو (أي ماليزيا) وعميداً لجامعتها ، والزعيم الأفغاني الصادق المجدّدي الذي أصبح وزيرا مفوضا لبلاده في القاهرة ، وابراهيم السقّاف زعيم مسلمي سنغافورة ، وعشرات من غيرهم الذين وجدوا في دار الشورى إخوانا وأصدقاء ومعارف وأحباباً . فيفهمون بعضهم بعضاً بغاية السرعة .

الحاج أغوس سالم أول وزير خارجية لأندونيسيا بعد استقلال بلاده مع عدد من مواطنيه في "دار الشورى" بالقاهرة عام ١٩٤٦

© Eltaher.org

وكان يؤم "دار الشورى" بصفة دائمة العديد من مشاهير الكتاب والصحفيين والشعراء المصريين مثل وديع فلسطين ، الأستاذ في الجامعة الأمريكية بالقاهرة الذي لا يزال ينشر مقالات حول الأدب والأدباء المصريين والعرب . هذا إلى جانب الأديب والمؤلف المصري والعربي الشهير علي أحمد باكثير الذي عرضت رواياته على مسرح دار الأوبرا الملكية في القاهرة .

كما حظيت دار الشورى أيضاً بشكري بك القوتلي ، رئيس الجمهورية السورية سابقاً ولاحقاً ، بل وكذلك خصومه السياسيين أيضاً ، حيث كانوا في أيام نكبة سورية وجهادها يجتمعون عند أبا الحسن في دار الشورى ويتحدثون في كل شيء ما عدا خصوماتهم الجارية فيما بينهم . كما أن زعيم تونس القديم السيد عبد العزيز الثعالبي قد وجد عند زيارته إلى الشرق سنة ١٩٢٢ مكاناً تستريح نفسه إليه في دُكّان أبي الحسن قبل أن يؤسس دار الشورى ، ولاسيما حين كان الزعماء المشارقة يجتمعون به عند أبا الحسن ليتداولوا في شؤون الساعة و يتبادلون وجهات النظر حولها . ومن مشيئة القدر أن تصبح تلك الدار مرة أخرى، وبعد ربع قرن ، مكانا يأتيه زعماء تونس مثل المناضل التونسي الحبيب بورقيبة ، الذي غدا فيما بعد رئيساً لوزرائها ثم رئيساً لجمهوريتها . هذا إلى جانب العديد من رفاق جهاده التونسيين ، فقد كانوا يجدون في مكانهم هذا متنفساً يعبرون فيه عن خلجات نفوسهم عن الاستعمار وفظائعه، ويتصلون بزعماء الأقطار الأخرى .

محمد علي الطاهر وزواره في "دار الشورى" بالقاهرة عام ١٩٥١
من اليمين إلى اليسار: سفير المملكة العربية السعودية في مصر الشيخ عبد الله الفضل ، علي المؤيد وزير اليمن المفوض في القاهرة
اللواء صالح حرب باشا ، وزير الحربية المصري ، أحمد حلمي باشا رئيس حكومة عموم فلسطين ، الأمير سيف الإسلام عبدالله وزير خارجية اليمن

ثم جاء إلى مصر زعماء استقلال المغرب الأقصى وفي مقدمتهم الزعيم علال الفاسي والكثير من رفاقه من مختلف أنحاء المغرب ، والأمير عبد الكريم الخطابي زعيم الريف بشمال المغرب ، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي زعيم علماء الجزائر (وهو والد الأخضر الإبراهيمي الأمين العام المساعد سابقاً في هيئة الأمم المتحدة) . ومن بين من كانوا يطرقون باب دار الشورى الملك ادريس السنوسي قبل استقلال ليبيا إلى أن عاد إلى بلاده المستقلة بعد تحريرها من الاستعمار الإيطالي عام ١٩٥١ ، وصالح مسعود بويصير وزير خارجيتها في العهد الجمهوري ، والذي قتل في حادث إسقاط طائرة ركاب مدنية ليبية قرب مدينة الاسماعيلية في مصر من قبل سلاح الطيران الاسرائيلي في ٢١ فبراير (شباط) ١٩٧٣ بحجة الاشتباه باقترابها من المجال الجوي الاسرائيلي .

من بين من لجئوا إلى أبا الحسن كان هنالك كل من هو بحاجة إلى كفالة أو من كان بحاجة لمثل أعلى يحتذي به . كما لعب أبو الحسن أحيانا دورا مختلفا جدا عن دوره ككاتب ، كناشر أو كوطني . حيث كان يطلب منه أحيانا أن يلعب دور ولي أمر لبعض التلاميذ الذين كان آبائهم في مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي يرسلونهم إلى مصر كي يتابعوا تعليمهم .

© Eltaher.org

وقد حدث مرة أن شابا أندونيسيا اسمه عبد القهار مُذّكَرْ كان ذويه قد أرسلوه إلى مصر كي يتابع تعليمه ، ولكنه وجد نفسه فجأة مقطوعا عن بلاده بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية . وبصفته ولي لأمره هرع أبو الحسن لمساعدته والاهتمام به . خلال تلك المحنة رسب عبد القهار مُذّكَرْ في امتحان النحو العربي الذي كان يطلق عليه اسم "الأشموني" نسبة إلى مؤلف كتاب قواعد اللغة العربية في ذلك العصر . بناء عليه صممت إدارة المعهد الذي يدرس فيه على أن يعيد السنة الدراسية . غير أن أبا الحسن ثار وتوجه فورا إلى مكتب وزير المعارف ، كما كان يسمى في ذلك الزمن .

قص أبو الحسن إذا على الوزير قصة عبدالقهار مُذّكَرْ الذي انقطع عن أهله وبلاده والذي لم تكن اللغة العربية هي لغته الأم في الأساس . وأشار أبو الحسن للوزير أنه لو طُلب منه ، أي الوزير ، أن يأخذ امتحان "الأشموني" هذا لرسب فيه! شاء الوزير ، ويعتقد بأنه كان أحمد زِيوَرْ باشا ، شاء أن يرتئي وجاهة الحجج التي ذكرها أبو الحسن واتصل ساعتها بالمنطقة التعليمية وأمر بأن يمنح عبد القهار مُذّكَرْ شهادة إتمام الدراسة رغم سوء حظه في امتحان النحو العربي الذي يعتبر مادة صعبة حتى بالنسبة للناطقين بالعربية ! من مفارقات الزمن أنه بعد سنوات من تلك الحادثة عُيّن عبد القهار مُذّكَرْ عميدا للجامعة الإسلامية في جوكجاكارتا في أندونيسيا .

هؤلاء جميعاً وغيرهم كانوا يجدون دار الشورى مفتوحة لجمع الشمل وللتحدث عن كل شيء يعنيهم ويعني أبا الحسن نفسه لأنه كان يؤمن بأن هذه الأقطار جميعاً بمثابة بلاده وأن قضية فلسطين لا تنفصل عن القضايا العربية والإسلامية الأخرى .

أم الحسن

قاد أبو الحسن نضاله منذ شبابه منفردا ولم يتزوج إلا متأخرا عندما "هجم النصيب " حسب القول العامي . ففي الثالث والعشرون من شهر فبراير (شباط) ١٩٣٩ اقترن أبو الحسن بأم أبنائه زكية البزري وهي ابنة أسرتين عريقتين من مدينة صيدا التاريخية في لبنان ، هما أسرتا البزري وزنتوت اللتان يعتقد بأنهما أصلاً من بلاد المغرب الأقصى . وكانت أسرتها قد انتقلت من لبنان مصطحبة أولادها الست إلى مدينة الإسكندرية في مصر عقب الحرب العالمية الأولى والمجاعة التي عمت في لبنان ، حيث نشأت وترعرعت إلى أن تخرجت من مدرسة راهبات سان فانسان دي بول Soeurs de la Charité de St. Vincent de Paul

أم الحسن (١) مع الراهبة آن ماري (٣) و زميلاتها في الإسكندرية عام ١٩٣٢

وكان لقائها الأول بأبا الحسن في مصيف حمّانا بجبل لبنان عام ١٩٣٨ بينما كان يزور شقيقها سليم البزري الذي كان يعرفه ، وكان أبا الحسن قد بلغ الثانية والأربعون بينما كانت هي في الرابعة والعشرين . ومن الجدير بالذكر أن الزيجات في ذلك العصر كان يتم ترتيبها مسبقاً في معظم الأحيان من قبل الأسرة ، غير أن زواجهما لم يتبع تلك العادات كما هو واضح .

صورة زفاف أم الحسن وأبو الحسن في القاهرة عام ١٩٣٩

وقد كان لأم الحسن دورا كبيرا في حياته ، حيث وقفت خلفه وبجواره تسانده عن إيمان مطلق في جميع المحن التي مر بها رغم صعوبتها وتأثيرها على حياتهما العائلية . فقد كانت متعلمة وتجيد العربية والفرنسية والإنجليزية كما كانت شغوفة بالقراءة ومطلعة على الأحوال العامة . وكانت تقوم بمراجعة وطبع مسودّات الكتب التي نشرها بعد زواجهما على الآلة الكاتبة لإعدادها للمطبعة ، وفتحت بيتها مرحبة بضيوفه ورفاق جهاده وأقاربه سواء في القاهرة أو في بيروت وصادقت الكثير من زوجات أصدقائه . وبطبيعة الحال كان عليها أن تقوم بتربية أولادها ورعايتهم بمفردها خلال سنوات الصراع التي قضتها الأسرة .

وقد ذاقت هي الأخرى طعم التشرد والسجن والنفي ، حيث اعتقلتها الحكومة المصرية بإيعاز من الإنجليز وأودعتها سجن الأجانب بالقاهرة بعد أن ضربها ضابط بوليس إدارة الشؤون العربية الأميرالاي (عقيد) محمد يوسف الذي كان قد رهن مستقبله المهني لسنوات طوال على اعتقال محمدعلي الطاهر لإرضاء السلطات البريطانية المسيطرة على مصر وقتئذ . ولكنه فشل رغم الوسام الذي منحته إيّاه الحكومة البريطانية تقديرا لخدماته في التنكيل بالوطنيين المصريين والعرب .

وللدلالة على فظاظة محمد يوسف ، أنه لما طلبت أم الحسن قبل اقتيادها إلى السجن أن تعطي عصفور الكناري الذي كانت تقتنيه الأسرة إلى الجيران كي يهتموا به فلا يموت جوعا أو عطشا ، رفض الضابط أن يسمح لها بذلك ، فتركت العصفور في قفصه على سلم البناية لعل أحد الجيران يعتني بالعصفور الذي تيتم ![١٠]

لدى وصولها إلى سجن الأجانب في بوكس (van) البوليس استقبلها مستر هيكمان (Mr. Hickman) مدير السجن المالطي الأصل استقبالاً لائقاً واعتذر لكونه سيلعب دور السجّان لسيدة محترمة مثلها ، وأصبح يشاركها بعض ما يصله من مجلات إنجليزية كانت زوجته مشتركة فيها. وكان الطبيب الشرعي في حكمدارية (أي محافظة) القاهرة قد رفض إجراء غسيل معدة لها حسب أوامر محمد يوسف الذي اشتبه في أنها قد ابتلعت ورقة عليها عنوان مخبأ أبو الحسن . حيث قال له الطبيب أن هذا إجراء يطبق على المجرمين والمهربين ولا يجوز القيام به مع سيدة محترمة . وكانت الحكومة في تلك الأيام "تخبىء" بعض المسجونين السياسيين المصريين المهمين في سجن الأجانب كي يصعب على ذويهم معرفة مكانهم ، وكان من بين هؤلاء المساجين في ذلك الوقت الوطني المصري الشهير أحمد حسين ، زعيم حزب مصر الفتاة ، وغيره . فلما لمحوا قرينة محمد علي الطاهر في نفس السجن ، وكان معظمهم يعرفونها ، تمردوا ضد إدارة السجن وهددوا بالإضراب عن الطعام .

لما فشل محمد يوسف في مهمته ألا وهي القبض على أبي الحسن بعد أن تمكن من الهرب من السجن وفشلت محاولات وزارة الداخلية في العثور عليه ، قامت الحكومة بترحيل أم الحسن بحجة أنها أجنبية إلى خارج حدود مصر في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤١ ، أي خلال الحرب العالمية الثانية ، في قطار عسكري بريطاني حملها الى مدينة اللّد بفلسطين. وقد أرادت الحكومة بذلك أن تضغط على أبا الحسن كي يسلم نفسه . وكانت أم الحسن تحمل وقتها فعلاً جواز سفر صادر عن حكومة الإنتداب الفرنسية التي كانت تحكم لبنان في ذلك الزمن . بعد قضاء اسبوع في فلسطين توجهت أم الحسن إلى لبنان للإقامة مع أقاربها إلى حين أن تنحل الأمور بالنسبة لزوجها الهارب .

عندما استقلت أم الحسن القطارالعسكري أجلست في القسم المخصص للضباط . وبينما كان القطار منطلقا بأقصى سرعة دون أي أضواء منبعثة منه خوفا من قيام الطائرات الحربية الألمانية بقصفه خلال عبوره لمنطقة قناة السويس ، نشب عراك بين اثنين من الجنود في نفس عربة القطار التي كانت تجلس فيها أم الحسن . وقد قصت تلك القصة عدة مرات على أبنائها وبعض الأصدقاء وأضافت قائلة أن واحدا من الجنديين تلفظ بمسبة ضد الآخرفي الظلام الدامس . وفجأة هب الضباط الراكبين في عربة القطار وجلهم من الإنجليز والأستراليين وصاحوا بالجندي : "عيب عليك أن تتلفظ بمثل تلك المسبات فهناك سيدة في القطار، ويجب أن تحضرحالا لتعتذر إليها !" وقد تأثرت أم الحسن بهذا الموقف وغمرها السرور أكثر لطرافة الموقف عندما حضر الجنديان ووقفا أمامها في وضع "انتباه" وأدى لها التحية العسكرية واعتذرا عما تلفظ به أحدهما.

جواز سفر أم الحسن الصادر عن دولة الإنتداب فرنسا عام ١٩٤١

© Eltaher.org

١١٠ شارع شبرا حيث كان آل الطاهر يقيمون في القاهرة

وجاء ترحيلها من القطر المصري عقب عدّة أشهر من المراقبة المكثّفة التي ضُربت حولها وحول شقة الأسرة في شارع شبرا بالقاهرة ، هذا فضلاً عن ملاحقتها باستمرار أينما ذهبت . وحيث أنها أضحت تعرف مراقبيها – أي مخبري المباحث الذين كانت تطلق عليهم اسم "الملاك الحارس" – أضحت تعرفهم مع الوقت دون صعوبة ، فقد حرصت على التقرب منهم والتحدث معهم . فكانوا يعاونونها في قضاء بعض الحاجيات ، وكانت هي تسمح لهم بالذهاب لزيارة أسرهم في الوقت الذي كان من المفروض فيه أن يراقبوا تحركاتها ، حيث أن ساعات العمل المفروضة عليهم كانت طويلة .

مقابل ذلك كانت تتعهد لهم بعدم الهرب وكانت تعطيهم برنامجاً مفصلاً بجميع تحركاتها خلال النهار . وفي إحدى المرات أصر المخبر أن يحمل عنها شنطة ملابس كانت تنقل فيها ملابس إلى زوجها الهارب! وحدث ذات مرة في بلدة التل الكبير التي لا تبعد كثيرا عن قناة السويس ، أن اثنين من مخبري البوليس اللذين لم يكونا يعرفا بعضهما البعض قد تبادلا اللكمات أمامها لأن كل منهما ظن أن الآخر هو زوجها الهارب وأراد أن يقبض عليه !

هذا وقد شملت المراقبة جميع أفراد الأسرة والأصدقاء ومن ينتسب إليهم أو يزورهم في مختلف أنحاء القطر المصري ، ومع ذلك فقد كانت على اتصال بزوجها الهارب رغم المراقبة الشديدة التي فُرضت عليها ، علماً بأنها كانت تعلم بأنه سالم في مخبئه . ويمكن للقارئ أن يطّلع على جانب من تفاصيل تلك الرواية السينمائية المُشوّقة وغيرها من المغامرات التي كان لها هي الأخرى فيها دوراً ملموساً وذلك في كتاب "ظلام السجن" الذي قص فيه أبو الحسن بين ما قص، مسألة هربه من السجن والدور الذي لعبته قرينته .

أم الحسن متخفية بالملاية اللف والبرقع اللذان كانا دارجان في مصر في الأربعينات
وذلك للتمكن من مقابلة زوجها الهارب في مدينة طنطا

© Eltaher.org

بعد أن سلَّم أبو الحسن نفسه شخصيا إلى رئيس وزراء مصر آنذاك الزعيم المصري مصطفي النحاس باشا كما مر ذكره إثر تشكيله لحكومة وطنية بعد أن أُقيلت الحكومة الموالية للإنجليز، صدرت التعليمات إلى قنصلية مصر في بيروت بمنح أم الحسن تأشيرة عودة إلى مصر كما تم إبلاغ سلطات الحدود بالترحيب بها في البلاد .

وكثيراً ما كانت أم الحسن تقص على أبنائها تفاصيل مسلسل ترحيلها . وكيف وقف العديد من المصريين الرسميين منهم وغير الرسميين معها مساندين ومتعاطفين قبل ترحيلها من مصر وخلال فترة هرب زوجها ، وإن لم يتمكنوا في نهاية الأمر من حمايتها من البوليس .

من الجدير بالذكر أن أبا الحسن كان قد رُزق قبل ابنه الحسن وابنته منى بطفلة اسمها "جهاد" ، غير أنها توفيت عام ١٩٤١ وهي في الشهر الثامن من عمرها نتيجة إصابتها بالحمى . هذا وقد رفضت السلطات المصرية التصريح لأبا الحسن بحضور جنازة ابنته البكر ولا مراسم دفنها .

آخر صورة لأم الحسن أخذت عام ١٩٨٩

قبل زواجها من محمد علي الطاهر وجدت زكية (أم الحسن فيما بعد) ، وجدت نفسها مضطرة إلى التوقف عن إكمال دراستها بعد حصولها على البكالوريا ، هذا في الوقت الذي حصلت فيه على توصية لمتابعة دراستها الجامعية في كلية الطب بفرنسا . فقد توفي والديها واحدا بعد الآخر، ووجد شقيقها عملا في القدس . غير أنه كان هنالك أخ وثلاث شقيقات آخرين لا يزالوا أطفالا . فرحل الجميع عائدين إلى صيدا حيث تركت زكية الصغار في رعاية شقيقتهم الكبرى بينما توجهت هي إلى العراق حيث عينت كمدرسة في مدارسها مع مطلع الثلاثينات . ولم تكن قد بلغت العشرون !

حركة الضباط الأحرار في مصر

لدى قيام انقلاب حركة الضباط الأحرار ، أي ثورة ٢٣ يوليو(تموز) ١٩٥٢ ، بقيادة البكباشي جمال عبد الناصر ، كان أبا الحسن يمضي بعض الوقت مع أسرته في الإسكندرية . وكان الملك والأسرة الحاكمة وكذلك الحكومة المصرية وأعضاء السلك الديبلوماسي المعتمد في مصر في تلك الأيام ينتقلون خلال فصل الصيف الشديد الحرارة في القاهرة إلى ثغر الإسكندرية حيث كانت تتحول عروس البحر المتوسط كما كانت توصف فيما مضى إلى عاصمة صيفية لمصر .

كان أبا الحسن مؤيدا لانقلاب حركة الضباط الأحرار مثله مثل كافة رجال الحركة الوطنية في مصر . بل كان من بين الذين كانوا يستلمون أحيانا المنشورات السرية التي كانت الحركة توزعها قبل قيام الإنقلاب المذكور . وإن كان أبا الحسن قبل الإنقلاب حانقا على دور عملاء الاستعمار البريطاني من بين بعضٍ من المسؤولين المصريين ، خاصة في دوائر البوليس ، وقلم المطبوعات ، ووزارة الداخلية ، وإدارة الشؤون العربية ، والقلم المخصوص ، والقلم السياسي ، وإدارة الأجانب التي كانت تعتبره "أجنبياً" ، فإنه لم يكن معاديا للنظام الملكي . وإن كانت تصرفات الملك فاروق الشخصية وحالة المجون التي تفشّت في أواخر عهده قد أصبحت غير مقبولة لا شعبياً ولا رسمياً ، فإنه من المنصف أن تُذكر أيضا مواقفه الوطنية وليس فقط سلبيات شخصيته كما سيأتي فيما بعد في هذا الموقع .

غير أن حكومة الثورة شاءت أن لا تتعامل مع رجال الحركة الوطنية الذين كانت لهم شعبية خاصة في مصر ، بل لجأت أحياناً إلى بعض ممن كانوا عملاء للإنجليز أيام العهد السابق ، أو العهد البائد كما كان يسمى وقتها ، فقربتهم منها واطلقتهم على رجال الحركة الوطنية .[١١]

محمد علي الطاهر مع اللواء محمد نجيب عام ١٩٥٣

وقد نال أبو الحسن نصيبه من تلك المعاملة الشائنة فترصدت له وزارة الداخلية فحالت دونه وإعادة إصدار جريدة "الشورى" التي كان قد أُعيد امتيازها له خلال الفترة القصيرة التي كان اللواء محمد نجيب خلالها رئيساً لمجلس قيادة الثورة ثم أول رئيس لجمهورية مصر . وهكذا أجبرته وزارة الداخلية على التوقيع على تعهد بعدم اصدار "الشورى" . ولما تكاثرت الاحتجاجات في مصر والعديد من البلدان الأخرى على ذلك التعسف ، أجبرته وزارة الداخلية على التوقيع على تعهد جديد "بعدم محاولة إعادة إصدار الجريدة". فأدرك ساعتها وبعد أن رأى كيف عومل رجال ، بل وحتى نساء الحركة الوطنية المصرية من أصدقاء الثورة بل ومن بين أعضائها وأصدقاء أعضائها الشخصيين ، أدرك وقلبه يعتصر على أرض الكنانة أن مصر قد تغيّرت.

استغل أبو الحسن فرصة دعوته من قبل رئيس أركان الجيش السوري الزعيم شوكت شقير لحضور احتفالات ذكرى عيد استقلال سوريا من الاستعمار الفرنسي في ١٧أبريل (نيسان) ١٩٤٧ . استغل أبو الحسن الفرصة وغادر القاهرة إلى دمشق في مطلع شهر أبريل (نيسان) ١٩٥٥ على أساس أنه سيعود إلى القاهرة بعد بضعة أيّام ، وذلك دون أن يخطر ببباله ولا ببال أسرته أن تلك كانت آخر مرة يرى فيها مصر التي كانت وطنه منذ ١٩١٢ حين وفد اليها على ظهر سفينة شراعية نقلته من ميناء يافا الى ميناء بورسعيد كما ذُكر آنفاً. وهكذا لم يرجع أبو الحسن إلى مصر وعاش ومات وهو يتمنى العودة إلى أرض الوطن الذي عاش فيه خمسون عاما ، ودون أن يلقى صديقه الوفي مصطفى النحاس باشا قبل وفاته كما كان يردد.

في دمشـق

أقام أبو الحسن في دمشق حتى عام ١٩٥٧ محاطاً بتقدير كبير من الوطنيين السوريين الرسميين منهم وغير الرسميين بدءا من رؤساء جمهوريتها مثل هاشم بك الأتاسي وشكري بك القوتلي ثم ناظم بك القدسي ، إلى أن وقعت الحكومة والبلاد في قبضة المخابرات العسكرية السورية (المكتب الثاني) بقيادة المقدم عبد الحميد السرّاج ، وسيطرت على مُقدّرات البلاد وأصبحت هي الحاكم الفعلي لها . وكان المقدم السرّاج على صلة وثيقة بأقرانه في المخابرات المصرية التي كانت قد ضاق ذرعها بكتابات أبا الحسن المعادية لتصرفات حكومة ثورة ١٩٥٢ حيال رجالات الحركة الوطنية وأرباب الصحافة الوطنية في مصر .

حفل تدشين مستشفى بيروت الجديد عام ١٩٥٥
من اليمين إلى اليسار: ١- رئيس الوزراء صبري العسلي ٢- أبو الحسن ٣- رئيس الجمهورية شكري القوتلي

من المحتمل أنها أوعزت للمخابرات السورية بمضايقة أبا الحسن لحمله على الكف عن تصديه للحكومة في مصر أو إخراجه من البلاد . وقد نجح عبد الحميد السرّاج في ذلك ، حيث وجد أبو الحسن نفسه وأسرته التي كانت معه في دمشق في خطر ، ولم تنجح محاولاته في الاستنجاد برئيس الجمهورية ولا برئيس الوزراء ولا برئيس المجلس النيابي ، لأنهم هم أنفسهم كانوا مهددين من قبل المخابرات . بل وما لبثوا أن فقدوا مناصبهم بعد إعلان الجمهورية العربية المتحدة التي كان من المفروض أن توحد سوريا مع مصر عام ١٩٥٨ . فنزح أبو الحسن قسراً عن سوريا إلى لبنان في صيف عام ١٩٥٧ دون أن تكتب له العودة إلى حبيبته دمشق .

أبو الحسن بصحبة الرئيس شكري القوتلي ورئيس الوزراء صبري العسلي
والملك حسين خلال زيارة الأخير الرسمية لسوريا - دمشق ١٩ أغسطس (آب) ١٩٥٦

خلال وجوده في دمشق نجح المسؤولون السوريون في إجراء مصالحة بين أبا الحسن والهاشميين في الأردن ، حيث كان أبو الحسن طوال حياته عدوا لدودا للملك عبدالله الأول ، أي جد الملك حسين الراحل والجد الأكبر للملك الحالي عبدالله الثاني .

خلق الإنجليز إمارة شرق الأردن ، التي سميت فيما بعد بالمملكة الأردنية الهاشمية ووضعوا على رأسها الأمير عبدالله ابن الحسين الذي أصبح ملكا عليها بعد أن جاؤوا به من الحجازعام ١٩٢١ . وكانت تسانده في الlحكم في تلك الأيام قوة من الجيش البريطاني إلى أن تم تشكيل قوة مكونة من بدو القبائل بقيادة ضباط من الجيش البريطاني . وقد أطلق على تلك القوة اسم "الجيش العربي"، Arab Legion ، بقيادة اللواء جون باجوت جلوب المعروف باسم جلوب باشا[١٢].

وقد أخذ أبوالحسن موقفا معاديا تجاه تلك الإمارة لعدة أسباب ، أولها أنها كانت اختراعا آخرا للإنجليز في المنطقة ، ثم ، وما هو أهم من ذلك بكثير ، أنه بينما كان شعب فلسطين يدافع عن وطنه من الإحتلال البريطاني ومن المهاجرين والمقاتلين اليهود الذين دفقوا عليه خاصة في الثلاثينات والأربعينات ، كان الملك عبدالله يتفاهم في الخفاء مع زعماء الحركة الصهيونية والوكالة اليهودية كي يقطتعوا له بعضا من أراضي فلسطين[١٣]. هذا في الوقت الذي كان ضباط وجنود الجيش العربي ، أي جيشه ، يسقطون تحت رصاص اليهود . هذا فضلا عن منعه المتطوعين والعتاد والذخيرة من الوصول إلى المقاتلين الفلسطينيين الذين كان يطلق عليهم لقب المجهادين . ولاعجب في أن قام أحدهم باغتيال الملك عبدالله عام ١٩٥١ نتيجة لما اعتبره الفلسطينيون خيانة عظمى في وقت الحرب بعد أن كادت البلاد أن تسقط بكاملها في أيدي العدو .

وقد حالت العمليات العسكرية الناجحة التي بادر بها قائد الجيش العربي في منطقة القدس القائد (كولونيل) عبدالله التل ، وضباطه في مناطق أخرى من فلسطين خلال عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩ ، حالت مبادرته دون سقوط مدينة القدس القديمة وبعض ضواحيها في أيدي قوات الهاجانا (Haganah) اليهودية.[١٤] وإن كانت القدس القديمة وما تبقى من فلسطين قد سقطوا بين أيدي الإسرائيليين في نهاية الأمر عقب حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧.

القائد عبدالله التل الحاكم العسكري العام للقدس عام ١٩٤٨

نجح الزعماء السوريون كما يبدو في إقناع صديقهم أبا الحسن بأن الملك حسين الذي أصبح ملكا على الأردن بعد اغتيال جده وتنحي والده الملك طلال عن العرش الأردني ثم استغناؤه عن خدمات الجنرال جلوب باشا أنه لم يقصر مع الفلسطينيين من عدة نواح ، وأنه لا فائدة من معاداته هو ومملكته بل ربما حان وقت طي صفحة الماضي . ولابد أن أبا الحسن قد وافق على ذلك لأن الرئيس السوري شكري القوتلي قد جمع الرجلان خلال زيارة رسمية للملك لدمشق ونجح في إجراء المصالحة بينهما .

© Eltaher.org

وقد حرص الملك حسين على دعوة أبو الحسن لزيارة عمان كضيف رسمي ، وقد لبى أبو الحسن الدعوة فعلا في شتاء ١٩٥٦ . ورغم أن الرجلان لم يلتقيا بعد ذلك فقد حافظ بعض كبار المسؤولين الأردنيين على علاقات حميمة مع أبا الحسن .

أبو الحسن مع الملك حسين في عمان عام ١٩٥٦

ومن الجدير بالذكر أنه لما رقد أحمد حلمي باشا رئيس حكومة عموم فلسطين وقبلها الحاكم العام للقدس رقدته الأخيرة في بيروت عام ١٩٦٣ اقترح أبوالحسن على الملك حسين أن يدفن الباشا بعد وفاته في حرم المسجد الأقصى بالقدس ، مثله مثل المناضل الفلسطيني عبد القادر الحسيني الذي قتل في معركة القسطل عام ١٩٤٨ . فأحمد حلمي باشا كان أحد الذين قادوا الدفاع عن مدينة القدس بنجاح خلال حرب ١٩٤٨ – ١٩٤٩ إلي جانب القائد عبدالله التل . فوافق الملك فورا ودفن الباشا هناك بعد وفاته.

رسالة بهجت باشا التلهوني رئيس الديوان الملكي الأردني إلى أبي الحسن
بتاريخ ٢٣ مايو (أيار) ١٩٦٣ التي يؤكد له فيها
موافقة الملك على اقتراحه بأن يدفن حلمي باشا في الحرم القدسي

© Eltaher.org

في بيـروت

بعد أن غادر دمشق مُكرهاً عام ١٩٥٧ ، أقام أبو الحسن في بيروت معزّزاً مكرّماً من كافة اللبنانيين على الإطلاق على اختلاف مذاهبهم المسيحيين منهم والمسلمين والدروز ، أي كما كان حاله بين مختلف الجاليات خلال نصف القرن الذي عاشه في مصر وقبلها في فلسطين . وقد شرع يكتب في جرائد بيروت والمهجر عن أحوال أمته من مشرقها إلى مغربها كما كان عهده في القاهرة .

وعلى غرار مجلسه اليومي في القاهرة الذي كان يقيمه في مكتبه "بدار الشورى" ، أقام أبو الحسن "صالونا" أدبياً صباح كل يوم أحد في شقته بشارع جان دارك في محلة رأس بيروت أمام حرم الجامعة الأميركية في بيروت .

أبو الحسن ونجله الحسن مع كميل شمعون
قبل أن يصبح رئيسا للجمهورية اللبنانية - فندق شبرد بالقاهرة عام ١٩٥١

وقد أطلق أصدقاؤه على ذلك المجلس اسم "الأكاديمية" . كما كان يقيم مجلساً آخر مساء كل يوم اثنين في شقته عُرف باسم "الندوة" ، وكان يؤم المجلسين شعراء وأدباء وديبلوماسيين وسياسيين وزعماء وأكاديميين وصحافيين ورجال قانون من لبنان وكافة الأصقاع .

وكانت بيروت في تلك الأيام نقطة انطلاق أو محور عمليات معظم شركات الطيران المارة بالشرق الأوسط بصفة عامة ، وكل من كان له سبب للسفر كان يجعل طريقه يمر ببيروت ، تلك المدينة ذات الموقع الفريد فضلا عن حيوية الشعب اللبناني ، الأمر الذي سهّل على أصدقائه ومحبيه الكثيرين أمر زيارته وإن كان لمدة سويعات قليلة وهم مارين "ترانزيت" عن طريق مطار بيروت الدولي .

مع الرئيس اللبناني اللواء الأمير فؤاد شهاب في القصر الجمهوري بصربا قرب بيروت عام ١٩٦١: من اليمين إلى اليسار الوزير الدكتور إلياس الخوري، محمد علي الطاهر ، الرئيس شهاب ، الوجيه اللبناني الدرزي عارف النكدي ، والمحامي محسن سليم رئيس جمعية الدفاع عن الحريات

إنتهاء الأجل

استمر نشاط أبو الحسن على هذا المنوال إلى أن عاجله الموت بفعل تقدم السن فجر يوم ٢٢ أغسطس (آب) ١٩٧٤ ووري الثرى في مقبرة الشهداء في بيروت بعد تشييعه بجنازة عسكرية فلسطينية حضرها مندوبين عن الملك الحسن الثاني ، ملك المغرب ، والرئيس الحبيب بورقيبة ، رئيس الجمهورية التونسية ، كما شارك في تقديم العزاء مندوبين عن كل من رئيس الجمهورية اللبنانية الأستاذ سليمان فرنجية ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك ياسرعرفات [١٥] .

جنازة أبو الحسن في بيروت عام ١٩٧٤

هذا وقد وجه مئات من الأصدقاء والأقارب برقيات ورسائل تعزية إلى أسرته من مختلف أنحاء العالم . وإحدى هذه البرقيات وجهها أحمد ابن سودة مدير الديوان الملكي المغربي قال فيها :

"علمت بمزيد الأسى وعظيم التأثر نبأ وفاة عميد أسرتكم المجاهد الكبير محمد علي الطاهر الذي كرس حياته و أوقف كل جهوده لخدمة القضايا العربية في المغرب والمشرق وبصفة خاصة لخدمة قضيتي فلسطين والمغرب . وإذا كنتم قد فقدتم فيه الزوج والأب فلقد فقدنا فيه نحن رفيقا في الجهاد وأخا كريما عزيزا ، وإنني إذ أعزيكم في هذا المصاب الجلل أضرع إلى الله العلي القدير أن يسبغ على الفقيد شآبيب رحمته وأن يهبكم الصبر الجميل .
إنا لله وإنا إليه راجعون .

أحمد ابن سودة
مدير الديوان الملكي المغربي"

مكانة أبو الحسن

شاهد أبو الحسن تكريما وتبجيلا وتقديرا لجهاده في حياته وبعد وفاته ، وما فتأت الصحف والمجلات الأدبية والسياسية العربية تذكره وتذكر مآثره إلى يومنا هذا، خاصة وأنه عرف بنزاهته ، فلم يمدّ يده يوما لأحد ، ولم يقبل ولو قرشا واحدا من أحد كي لا يفقد حريته وحرية ما يقوله وما يكتبه . وفي الوقت الذي كان فيه عدد لا بأس به من الشخصيات السياسية العربية محسوبا على العثمانيين أو الإنجليز أو الفرنسيين ، هذا إذا لم يكن يقبض منهم ، لم يتصف أبا الحسن بأي من ذلك . الأمر الذي جعله محرجا للبعض بطبيعة الحال ، ولكن شعبيته كانت كبيرة ، حيث كان نسمة هواء نقي لمعظم الناس . إلا أنه لم يوفر يوما جهدا سعيا لمساعدة أصدقائه ورفاق نضاله باحثا من أجلهم على التبرعات المالية من أصحاب النخوة والوطنية دون أن يطلب أو يأخذ شيئاً لنفسه أو لأسرته .

ولما اشتدت به الضائقة المالية في نهاية حياته في بيروت ، وكان قد تعدى السبعينات ، وافق على مضض أن يقوم صديقه ورفيق نضاله الرئيس الحبيب بورقيبة بتسديد أجرة الشقة التي كان يسكنها . وحيث أنه لكل من هو محبوب حُسّاد ، لم يفلت أبو الحسن أحيانا من تلك القاعدة ، فقد عاداه كل من كان له مصلحة مع أعدائه أو من كان لا يريد أن يعرف شيئا عنه أو من أخذ يتصور أشياء لا أساس لها من الصحة . ولكن الله ينصف المخلصين والصادقين في نهاية الأمر .

عندما أسقطت حكومة الرئيس جمال عبد الناصر الجنسية المصرية عنه دون علمه ودون إبداء أسباب ، سارع الملك الحسن الثاني بإصدار جوازات سفر مغربية له ولأسرته . غير أن الجنسية المصرية أعيدت لهم كاملة غير منقوصة بعد عشر سنوات أي بعد أن تسلم الرئيس أنور السادات الحكم في مصر . وأصبح بإمكان أحباء أبو الحسن في أرض الكنانة من ذكر اسمه في الجرائد والمحافل دون خوف أو هلع . رغم مكانته وسمعته وشهرته لم يحصل أبو الحسن على الجنسية المصرية في الأساس سوى في شهر أبريل (نيسان) ١٩٥١ بعد أن أقام في مصر مدة ٣٨ عاما ، وبعد أن أثيرت مسألة جنسيته في إحدى جلسات مجلس النواب المصري .

من اليمين إلى اليسار: أنور السادات، أمين عام مؤتمر العالم الإسلامي قبل أن يصبح رئيسا لجمهورية مصر ، فالنائب اللبناني صلاح البزري ، فمحمد علي الطاهر، فمدحت فتفت ، سفير لبنان في مصر ، فالأمير فريد شهاب مدير الأمن العام اللبناني
فالصحافي العراقي يونس بحري ، مؤسس إذاعة "هنا برلين حي العرب" خلال الحرب العالمية الثانية - بيروت ١٩٥٥

© Eltaher.org

وقد كانت له في مصر معزّة خاصة ومكانة متميزة على مختلف الأصعدة وبين مختلف طبقات المجتمع والطوائف من أبسط مواطن في القاهرة أو في الأرياف أو في المدن الصغيرة منها والكبيرة إلى أرفع مستويات الدولة والمجتمع طوال السنوات التي سبقت منتصف الخمسينات كما يتبين مما سبق . حتى أن رئيس وزراء مصر في ذلك الحين ، وكان وقتها الزعيم مصطفى النحاس باشا ، قد توجه يوم ٥ مارس ١٩٣٦ إلى مكتب "دار الشورى" بشارع عبد العزيز بصحبة مكرم عبيد باشا لتقديم تعازيهما عقب وفاة والدة أبا الحسن في فلسطين [١٦].

رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس باشا محتضنا أبا الحسن خلال حفلة في قصر الزعفران بالقاهرة عام ١٩٥١
هكذا كان الرجلان يلتقيان دائما تعبيرا عن حرارة الصداقة التي كانت تجمعهما

تقدير جهاد محمد علي الطاهر

عُرف أبو الحسن بصفة عامة كما ذُكر آنفا باسمه الكامل وبكنيته ، ولكن كل من أشار إليه كتابة لقّبه بـ "المجاهد العربي الكبير" ، وهو لقب وجد طريقه إليه طبيعياً من بين أحبائه وجميع الذين كانوا يعرفون قدره ودرجة تفانيه في سبيل القضايا العربية والإسلامية المُحِقّة على اختلافها .

أبو الحسن يتسلم براءة نيشان الإفتخار من محمد الأمين، باي تونس في القصر الملكي عام ١٩٥٦
بينما يبتسم رئيس الوزراء الحبيب بورقيبة و أفراد الحاشية الملكية لشيء ما قاله أبو الحسن

أما من حيث التقدير الرسمي ، فقد مُنِحَ الأوسمة التالية:

١- الصنف الأكبر من نيشان الإفتخار

وهو أول وسام يحصل عليه ، وقد منحه وقلّده إياه محمد الأمين، باي (أي ملك) تونس في القصر الملكي في إغسطس (آب) ١٩٥٦

٢- وسام العرش من الدرجة الثالثة

وقد منحه وقلّده إياه الملك محمد الخامس في القصر الملكي بالرباط في يوليو (تموز) ١٩٦١

٣- وسام الإستقلال من الصنف الثاني

براءة وسام الإستقلال التونسي

وقد منحه وقلده إياه الرئيس الحبيب بورقيبة
في القصر الجمهوري بتونس في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦١

٤- الدرجة الممتازة من وسام العرش

وقد منحه إياه الملك الحسن الثاني ، وقام بتقليّده إياه
الدكتورعمر بوستة سفيرالمملكة المغربية في بيروت في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٢

براءة وسام العرش المغربي

٥- الصنف الأكبر من وسام الاستقلال

وقد منحه إياه الرئيس الحبيب بورقيبة وقلّده إياه صلاح الدين عبدالله سفير تونس في
بيروت في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٤ بحضور السيدة وسيلة حرم الرئيس الحبيب بورقيبة .

الأوسمة المغربية والتونسية التي منحت لأبا الحسن

هذا وكان البرلمان الأندونيسي ينوي إقامة حفل خاص عام ١٩٦٥ لتكريم أبا الحسن وتوسيمه في العاصمة جاكارتا من قبل رئيس الجمهورية الدكتور أحمد سوكارنو اعترافاً بدوره في مساندة حركة التحرير من الاستعمار الهولندي ، غير أن الإنقلاب العسكري الذي قام به الجنرال أحمد سوهارتو قد غيّر منهج الحكومة الأندونسية فلم تقام حفلة التكريم.

© Eltaher.org

أبو الحسن والواقع العربي

كان أبا الحسن وطنياً عربياً مخلصاً بكل ما لهذا التعبير من معنى . وإن لم يكن ملتزما دينيا ، فقد كان الإسلام بالنسبة له الإطار الحضاري والثقافي لهذه الأمة على اختلاف مكوناتها العرقية والدينية . وهكذا كان تعامله مع الأفراد أكانوا عرباً أو أكراداً أو من البربر أو من الهند أو من أندونيسيا أو من أفغانستان أو من المسيحيين أو المسلمين أو الدروز على اختلاف مللهم وأجناسهم دون أن يكون لاعتقاداتهم أو لما يعتنقونه من دين أي تأثير على علاقته بهم . وقد ذكر في كتاب "معتقل هاكستب" أن المسجونين المصريين اليهود الذين وضعوا في المعتقل الاحترازي خلال حرب فلسطين قد تعرفوا عليه عندما رأوه في المعتقل وبادروه التحية يوم العيد ! وهذا ما يفسر وقوفه بكامل جوارحه إلى جانب كل مظلوم في نضاله ضد الظلم والطغيان والاستعمار . وينعكس ذلك في مقالاته وكتبه وعلاقاته الإجتماعية التي تخطت كافة الحدود الجغرافية والدينية والعقائدية . حتى أنه أدخل ابنه مدارس الفرير الفرنسية المسيحية، وابنته مدارس الراهبات في القاهرة وبيروت .

ونتيجةً لمواقفه المبدئية السياسية والوطنية الصلبة ضد الإستعمار وقفت منه الدول الإستعمارية مثل بريطانيا وإيطاليا وفرنسا وهولندا موقفاً معادياً ، وكثيراً ما تقدمت بالشكاوي ضده إلى الحكومة المصرية بسبب مناصرته للشعوب العربية والاسلامية الواقعة تحت استعمارهم . وقد حدث مرة أن تقدم سفير إيطاليا في القاهرة بشكوى إلى رئيس وزراء مصر مباشرة ، وكان وقتها محمد محمود باشا . حيث طلب السفير من رئيس الوزراء أن يُسْكِتَ أبا الحسن بحجة أنه "أجنبي يسيء استغلال أصول الضيافة في مصر لأنه يؤلب الشعب الليبي ضد الأيطاليين ، وأنه لا يجوز لمصر ، صديقة إيطاليا ، أن تسمح له بإساءة العلاقات بينها وبين حكومة الدوتشي بينيتو موسوليني". وقد أجابه محمد محمود باشا قائلا أن محمد علي الطاهر بحكم أنه عربي مقيم في مصر إنما هو في نظره مصرياً . وأضاف الباشا قائلاً أنه وإن لم يقابل محمد علي الطاهر في حياته بل يسمع به ، إنما يرى صواب وجهة نظره حيال الإستعمار وأنه يتفق معه الرأي في أن إيطاليا تسيء معاملة الليبيين .

هذا وتضمنت كتاباته نواح ودقائق عن الأسباب العربية التي أدت إلى ضياع فلسطين لم تتضمنها أي كتابات أخرى في زمنه مثل عدم كفاءة الحكومات العربية بشكل فاضح ، فضلا عن حالة واحدة على الأقل ثبت فيها التعامل الإجرامي مع العدو . بل حتى المؤرخين اليهود والاسرائيليون منهم قد غفل معظمهم أو تعمد إغفال مدى فداحة التقصير العربي ، سواء المتعمد أو غير المتعمد حيال فلسطين قبل وقوع النكبة كي يحصروا بطولة انتزاعها بينهم فقط . فعلى سبيل المثال نجد أن بعض المؤرخين الإسرائيليين والأردنيين يستمرون حتى اليوم في وصف الدور غير المقبول الذي لعبه الملك عبد الله الأول خلال سنوات النضال عندما كان يتآمر مع اليهود ضد الفلسطينيين على أنه دليل على حنكته وبعد نظره .

في حديث مع محرر مجلة "روز اليوسف" المصرية بتاريخ ١٥ مايو (ايار) ١٩٣٦ حول ثورة فلسطين الكبرى في تلك الأيام ، قال محمد علي الطاهر"إن فلسطين تثور اليوم وللمرة السادسة في مدة ١٥ عاما لإن الإنجليز يعملون على إخراج أهلها منها وإحلال اليهود محلهم ... أما ثورة ١٩٣٦ إنما هي ضد الإستعمار الإنجليزي .. ومبعثها الحس الوطني ، والشعور بالحاجة إلى الدفاع عن الكيان والوجود ، وحب البقاء في أرض الوطن .. فالإنجليز جاءوا فلسطين على أن يكونوا حلفاء للأمة العربية ، فإذا بهم يمتلكونها امتلاكا استعماريا ، ثم لم يكفهم ذلك ، بل أرادوا تأمين طريق جديد للهند على حسابنا ، ووضع حامية فيها لا تكلفهم شيئا ، فجاءوا بالصهيونيين من جميع أنحاء العالم ، وأقطعوهم أراضينا ، حتى بلغ عددهم ثلث عدد الأهالي ، وسيضحون الأكثرية بعد زمن قصير ." ثم أضاف قائلا : ".. كان أهالي فلسطين يخطئون في أول الأمر ، ويقاتلون اليهود على اعتبار أنهم أساس الشقاء ، كما حدث في ثورات فلسطين عام ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٩ . ولكنهم فطنوا أخيرا إلى سبب البلاء الحقيقي وهو الإستعمارالإنجليزي فجعلوا ثوراتهم على الإنجليز رأسا كما حدث في سنوات ١٩٣٠ و ١٩٣٣ " . وقد أشار أبو الحسن في معرض حديثه مع مندوب "روز اليوسف" إلى أن الإنجليزكانوا ".. يجتهدون في إخفاء الأسباب الحقيقية للثورة فيزعمون أنها عبارة عن شغب بين العرب واليهود . يعني أن الإنجليز ملائكة لم يصنعوا شيئا سوى أنهم يحفظون الأمن ، ويمنعون اعتداء أحد الطرفين على الآخر ، على حين أن الجنود الإنجليز هم الذين يعتدون على الأهالي ، ويتصيدون المسلمين والمسيحيين بالرصاص ، حتى لو لم يتعرض لهم أحد" .

كما بين أبو الحسن عناد وقِصَرْ نظر بعض الزعامات الفلسطينية آنذاك ، ولم يتوانى عن توجيه اللوم حتى إلى صديقه القديم زعيم فلسطين الأكبر أي المفتي الحاج أمين الحسيني . كل ذلك مكّن اليهود ، كما كان يشار إليهم قبل قيام دولة اسرائيل وتسميتهم بالإسرائيليين ، مما مكنهم من الاستيلاء على فلسطين وانتزاعها من أهلها بسهولة نسبية بمنازلها المفروشة ومدارسها المؤثثة وسياراتها وحقولها المزروعة وبساتينها المثمرة ومحاصيلها التي لم يتمكن المزارعون الفلسطينيون من جنيها ، وماءها الجاري فوق الأرض وتحتها ، وموانئها بمراكبها ومطاراتها وشواطئها ، بل والأوكسيجين الذي تتنفسه .

المناضل الفلسطيني عارف عبد الرازق مع أركان حربه
حمد زواتا و محمد العمر وأفراد الحرس الحديدي خلال ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩

© Eltaher.org

وقد قارن أبو الحسن بين وفاء الإنجليز حيال اليهود ووفاء العرب حيال فلسطين في تلك الأيام فقال في كتاب "معتقل هاكستب" : "مع أنه لا يوجد بين الإنجليز واليهود أية صلة قومية أو دينية أو عرقية أو أرضية ، فإنهم لما وعدوا اليهود بإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين لم يخلفوا وعدهم ، بل وفوا بحذافيره بعد أن كلّفهم الوفاء به سيولا من دماء جنودهم ، والملايين من أموالهم وحتى سمعتهم أيضا ، فقد قاتلوا أهل فلسطين مدة ثلاثين عاما ، وارتكبوا معهم أنواع الفظائع ، وتحملوا عداوة الدنيا بأسرها . ولكنهم مع ذلك لم يتراجعوا عن وعدهم شبرا واحدا ، وما خرجوا من فلسطين الا بعد أن أخمدوا العرب وحاصروا أهل فلسطين وفصلوهم عن إخوانهم ، وأقاموا الدولة اليهودية وانصرفوا غير مشكورين من اليهود !"

أعضاء اللجنة العربية العليا الذين نفتهم سلطات الإنتداب البريطاني إلى جزر سيشل عام ١٩٣٧ لتجميد القيادات الفلسطينية
من اليمين إلى اليسار: يعقوب الغصين ، رشيد الحاج ابراهيم ، أحمد حلمي باشا ، الدكتور حسين الخالدي ، فؤاد سابا

"هكذا كان وفاء الإنجليز لليهود . أما وفاء العرب للعرب فكان ما رأيتم وسمعتم ، جعجعةً وخطباً وتهويلات وحفلات وقرارات ووعوداً خدرت أهل فلسطين

المناضل الفلسطيني عبد القادر الحسيني
الذي قتل في ساحة المعركة خلال حرب ١٩٤٨

وأماتت روح الجهاد والمقاومة دفاعاً عن وطنهم من نفوس أكثرهم . لأنه لم يخطر ببال أحد أن الجامعة العربية كانت تكذب عليهم ، وأن دولاً عربية تحيط بفلسطين تسوق إليها جيوشها . ثم تقف بغتة وتتراجع ، ثم تنسحب إلى بلادها ". وأضاف أبو الحسن في صفحة أخرى من كتاب "معتقل هاكستب" قائلا: "لقد حارب الفلسطينيون جيش الإنجليز ومعهم اليهود من أوائل سنة ١٩٣٦ إلى أواخر سنة ١٩٣٩ حرباً حقيقية وكسروا الجيش البريطاني الأول الذي كان يقوده الجنرال ديل[١٧] ، ثم هزموا الجيش الثاني الذي جاء بعده بقيادة الجنرال ويفل[١٨] سنة ١٩٤٨ ، ثم مزقوا الجيش الثالث الذي جاء بعد ذلك بقيادة الجنرال هيننج[١٩] سنة ١٩٣٩" .

لو أن الحكومات العربية ساعدت الفلسطينيين عام ١٩٤٧ و ١٩٤٨ في الوقت المناسب على الحصول على أنواع الأسلحة التي كانوا بحاجة إليها وسمحت للمتطوعين العرب بالإنضمام إلى المجاهدين بدون أن تتدخل تلك الحكومات رسميا، لتمكن عبدالقادر الحسيني قائد المجاهدين الشهير من إحراز النصر هو وقواته والمتطوعين الذين انضموا إليهم يعاضدهم إيمانهم بحق وطنهم ودفاعهم عن حرماتهم .

يتحلى العرب بمزايا هائلة ، ولكنها سرعان ما تختزل نتيجة معوقات يمكنهم تخطيها لو أرادوا . فمشكلتهم الأساسية التي يعانوا منها هي انقساماتهم الدائمة. حيث تفرق بينهم القبلية والإنتمائات الدينية والمذهبية . كما ينهكهم التنافس السخيف والطموحات الشخصية المتضاربة. وتجدهم على استعداد للدخول في معارك جانبية بينهم البعض ربما أكثر من استعدادهم لمواجهة أعدائهم .

وتجدهم يتناقشون طويلا في المسائل السياسية ويحللونها تحليلا مستفيضا ويقترحون حلولا لها . غير أنهم بمجرد أن يشبعوا ولعهم في الخطابة والبيان فإنهم لا يلبثوا أن يعودوا إلى بيوتهم معتقدين أن المسألة قد تم حلها . فلا يخطر ببالهم آليا أن ما بذلوه فكريا إنما يجب أن يضعونه ضمن مخطط ثم يقومون بتطبيقه ومتابعته إلى أن يتم حل المشكلة. فسرعان ما يضيق نفسهم عندما يتطلب الأمر الصبر والثبات لفترة طويلة ، وسرعان ما يقنتون وتثبط عزائمهم . غير أنهم إذا كانوا تحت قيادة سياسية أو عسكرية جيدة ومتفتحة ، أو إذا كان الأمر يتعلق بمشاريع تجارية تخصهم ، فإنهم يرفعون الرأس ويبلون بلاء حسنا .

ونتيجة لتلك المعوقات السلبية وخاصة التنافس بين الملوك والرؤساء طوال النزاع بين الإسرائيليين والفلسطينيين ، فإنهم لم يتمكنوا من حماية فلسطين من المهاجرين الأوروبيين اليهود المسلحين خلال معارك فلسطين ما بين ١٩٣٦ و ١٩٤٨ . هذا في الوقت الذي كان اليهود فيه يتمتعون بقيادات متفانية ومتبتلة وعلى مستوى عال من الكفاءة وحسن التنظيم ويقودون مقاتلين مدربين تدريبا جيدا ويتبعون تكتيكا مرنا وقدرة على تنفيذ العمليات بأخذ البادرة ودون انتظار الأوامر من قيادات على بعد شاسع من ميادين القتال.

نظرة من زاوية مختلفة نحو حل للنزاع بين اسرائيل والفلسطينيين

تمهيد

لم تبقى محاولة من المحاولات التقليدية لإيجاد حل للواقع الأليم بين الفلسطينيين والإسرائيليين دون أن يتم تجربتها أو الخوض فيها طوال سنين . وقد حان الأوان لإعادة التفكير بحل لتلك القضية قد يبدو للبعض بأنه خارج عن المألوف .

إذا لم يتم إيجاد حل معقول للقضية الفلسطينية قد تصبح تلك القضية محركا لوقوع المزيد من أعمال العنف أو على الأقل أن يستخدمها البعض كعذر للقيام بأعمال عنف في الشرق الأوسط قد تنتشر على الصعيد الدولي . غير أن ذلك يجب ألا يكون الدافع الوحيد ، فإيجاد حل لتلك القضية الإنسانية هو سبب كاف بحد ذاته.

تشكل المقاومة الفلسطينية المستمرة والتي تجنح أحيانا إلى العنف ضد ما تبتكره اسرائيل من مخططات خلاقة تهدف إلى ضم ما تبقى من وطنهم مثالا لذلك. أما المثال الثاني فهو انتفاضة الجيتو اليهودي (أي حي اليهود) ضد النازيين في مدينة وارسو الذي كان يشكل دفاعا عن النفس وليس حركة إرهابية كما كان النازيين يصفونه. فهذا النوع من أعمال العنف يختلف عن تلك التي ترتكب ضمن عقيدة سياسة أو عقائدية أو دينية. وبينما يمكن لحركات المعارضة السياسية في البلدان ذات النظام الديموقراطي الفعلي أن تعبر عن وجهة نظرها المعارضة ضمن القوانين التي تضمن لها تلك الحرية ، فإن من يلجأ إلى أعمال العنف في كنف تلك البلدان إنما هم إرهابيون بكل معنى الكلمة . ولذلك يجب الحرص دائما على تسمية الأشياء بأسمائها.

يعلم الجميع اليوم بأن أساس الخلاف بين شعبي فلسطين واسرائيل ليس خلافا على دين أو عقيدة ، باستثناء طبعا بين الأصوليين الدينيين والمتطرفين في الجانبين . هذا دون أن نغفل بالطبع محترفي السياسة المتطرفين مثلهم مثل أقرانهم في مختلف أنحاء العالم الذين تهمهم السلطة والكسب الشخصي والولع في اللعبة السياسية .

يعتبر شعب فلسطين نضاله بكل بساطة معارضة ومقاومة لغزو من قبل أغراب ولظلم واستبداد وتسلط وسلبطة من قبل أناس بحق أُناس آخرين. حيث يعتبر اليهود الصهيونيون الذين انتزعوا البلاد من الفلسطينيين يعتبرون "مشروعهم (أي الإستيلاء على فلسطين) وتطلعاتهم بأنها عادلة ومنزلة من الذات الآلهية وعلى مستوى عال من الفضيلة"[٢٠].

لا ينازع أحدا ارتباط الشعب اليهودي روحيا بالأرض المقدسة في فلسطين مثله مثل ارتباط المسيحيون والمسلمون بنفس الأرض. هذا دون أن ننسى تأثير الدين اليهودي على كلا من الإسلام والمسيحية. فقد ولدت الديانات الثلاث في مناطق متقاربة جدا. كما أن القصص والحكايات التي تروى في الكتب المقدسة للديانات الثلاث هي الأخرى متطابقة إلى حد كبير. ويعتبر معظم المؤمنون أن تلك الأقاصيص تعكس أحداثا تاريخية مثبتة ، وإن كان ذلك قابل للنقاش رغم ورود إشارات في تلك الأقاصيص إلى أماكن جغرافية أو تاريخية حقيقية .

هل هناك حل للنزاع بين اسرائيل والفلسطينيين؟

الجواب هو نعم ! غير أن محمد علي الطاهر توفي قبل أن يتمكن أي كان في اسرائيل والعالم العربي من فتح موضوع البحث عن حلول أو حتى التفكير بها سوى عبر فوهة المدفع . فعند وفاته عام ١٩٧٤ كانت فلسطين في جميع الأحوال قد اختفت والجرح كان لا يزال ينزف . كما أن معرفته بواقع العالم العربي وكذلك حالة شعب فلسطين بينت له ولغيره أنه لم يكن هنالك أمل في المستقبل .

وقد رأى القائمين على إعداد وتطويرهذا الموقع أنه يجب عليهم أن لا يتوقفوا عند سرد قصة محمد علي الطاهر ، بل الإرتكازعلى تجربته المرة والنظر إلى المستقبل على ضوء الحاضروليس فقط على ضوء الماضي .

علما بأن الفلسطينيين الذين رأوا وطنهم يختفي من تحتهم كما لو كانت رمال متحركة قد ابتلعته ، لما كان في استطاعتهم أن يفكروا بسيناريو يفرض عليهم المساومة على وطنهم ، فمن غير المتوقع مطلقا من جهة سيكولوجية أن يفكر أي إنسان بالمساومة حول وطنه ليس فقط بالنسبة للفلسطينيين ولكن بالنسبة للإسرائيليين أيضا في يومنا هذا . غير أنه إذا نظرنا إلى الأمور كما هي عليه اليوم فإنه لا يضير أن نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه وذلك لمصلحة الطرفان بل ولمصلحة العالم أجمع.

فيما يلي اقتراح للمداولة يختلف عما هو مطروح حتى الآن للخروج من الأزمة كما هي عليه اليوم . حيث يدعو الحل المقترح في بداية الأمر إلى إيجاد تسوية ملائمة لكل من الطرفان تؤدي فيما بعد إلى حل مناسب حبذا لو تم تطبيقه. علما بأنه إذا لم تلعب دولة عظمى مثل الولايات

المتحدة الأمريكية وحلفائها الرئيسيين دورا مباشرا كطرف في الموضوع وليس فقط كوسيط أوعامل مساعد، فإنه من العبث توقع التوصل إلى حل قابل للتطبيق. فالواقع الحالي بين العرب واليهود أكان سياسيا أو دينيا فإنه لا يمكن أن يؤدي إلا إلى كارثة محققة .

تتطلب التسوية التدريجية المقترحة من الذين سيطلعون عليها أو العمل بموجبها فصلا فعليا بين الطرفان لإعطائهما مجالا للتنفس لفترة من الزمن قد تطول أو تقصر حسب الظروف المحيطة بهما . أما بالنسبة لمرحلة السلام ، فقد تتطلب عدة سنوات قبل البحث فيها. علما بأن هذا الأسلوب التدريجي سوف يسمح للطرفان في نهاية الأمر بالتخاطب كشركاء متمدنين وليس كسكان الكهوف في عصور ما قبل التاريخ .

كي يتمكن المرء من تناول موضوع السياسة أو الدين بكيفية واقعية وفعالة يجب عليه أن يكون ملما بواقع الأمور لدى كلا من الجانبين . أي أنه يتعين على الفلسطينيين أن يتفهموا الموقف الإسرائيلي ، كما يجب على الإسرائيليين أن يضعوا أنفسهم في مكان الفلسطينيين . فضلا عن ذلك يجب على كل جانب أن يكون على استعداد لأن يعيد النظر في بعض معتقداته السياسية والدينية التي يعتبرها غير قابلة للنقاش وأن يسمع أشياء هو غير معتاد على سماعها أو لا يريد أن يسمعها . على أن يأتي إلى طاولة المحادثات وفي نيته إيجاد حلول وتقديم تنازلات وليس لمجرد المناقشة والمناورة . وأي حل يمكن التفكير به يجب تناوله بطريقة مبتكرة ومختلفة عما سبقها من طرق ، ويجب أن يتحلى الذين سوف تناط بهم مهمة إيجاد الحل المنشود بروح وفطنة تختلف عما كان مألوفا حتى الآن . وأخيرا عليهم أن يتحلوا بأقصى حدود الصبر .

يبدأ الحل المقترح فيما يلي بتقديم خلفية حول أبعاد التعقيدات المحيطة بتلك القضية المتشابكة بين العرب والفلسطينيين المسلمين والمسيحيين منهم من جهة والإسرائيليين واليهود من جهة أخرى ، وكذلك ما يصبو إليه عامة الناس لدى الشعبان .

الطريق من فلسطين ...

لمّا تبرعت بريطانيا بعد احتلالها لفلسطين بتسليم بلاد أناس آخرين أو على الأقل جزء منها إلى مستوطنين جدد جلهم من شعوب أوروبا الشرقية الذين لا تجمعهم صلة بشعوب منطقة الشرق الأوسط ، تصدى أهل فلسطين لتلك الأقوام الجديدة المفروضة عليهم . لم يكن رفضهم لأن الوافدين كانوا من أتباع الدين اليهودي ، بل لأن بريطانيا فرضتهم كمُستوطنين هَمّهم المعلن حسب عقيدتهم الصهيونية انتزاع البلاد أو ما يستطيعون انتزاعه منها لهم . أما الفلسطينيون العرب من أتباع العقيدة اليهودية الذين كانوا يعيشون إلى جانب مواطنيهم المسيحيين والمسلمين في البلاد فلم يشاركوا في هذا المخطط الصهيوني . فخلافا لعدد ضئيل من الأفراد بين أعضاء القيادات اليهودية ، فإن غالبية المهاجرين الجدد لم يكن في علمهم أنه ما يزال هناك يهود يعيشون في فلسطين منذ عهود الرومان!

ما أن حققت بريطانيا التزامها بتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود عن طريق وعد بالفور عام ١٩١٧ ، وبعد أن أشرفت على تنفيذ مراحل عملية انتزاع الأرض من الفلسطينيين ، أصبح اعتراض هؤلاء أكثر دويا . ومع حلول العشرينات أصبح الفلسطينيون أكثر تنظيما إلى حد ما وأضحوا يهاجمون المؤسسات والقوات البريطانية وكذلك الأفراد والمستعمرات اليهودية عسكريا . وبطبيعة الحال فقد قام الأخيرين بالدفاع عن أنفسهم والرد على الهجمات الفلسطينية . وهكذا اشتعل مسلسل العنف الذي لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا .

ويجب ألا يغيب عن الأذهان أن مسؤولية بريطانيا تاريخيا في كارثة فلسطين إنما هي مسؤولية عظيمة وأنه يجب على بريطانيا أن تتحمل تلك المسؤولية تجاه شعب فلسطين نظرا لما تسببته لهم من مصائب باستحلالها لبلادهم ، بل والأنكى من ذلك وهو تسليم البلاد لأناس آخرين دون "استئذان" أهل فلسطين على أقل تقدير!

كان زعماء الحركة الصهيونية مثل الدكتور حاييم وايزمان ودافيد بن جوريون يعرفون معرفة تامة بأن فلسطين كانت مأهولة وأن الشعب الفلسطيني سوف يعترض على مشروع توطين يهود أوروبيين في بلدهم لتأسيس الوطن القومي لليهود . هذا في الوقت الذي فوجىء فيه عدد كبير من المهاجرين أو المستوطنين الأوروبيين اليهود بأن البلاد مأهولة وأنها ليست "أرضا بدون شعب تبحث عن شعب بدون أرض"[٢١] . وحتى اليوم هنالك الكثيرين من بين الإسرائيليين الذين ينظرون إلى الفلسطينيين على أساس أنهم "سكان غير شرعيين" وغرباء جاءوا من البلدان المجاورة واستولوا على "أرض الميعاد"[٢٢] بينما كان أصحابها الشرعيين غائبين خلال الألفي عام الأخيرة!

يعلم الجميع اليوم بأن أساس الخلاف بين شعب فلسطين واسرائيل ليس خلافا على دين أو عقيدة ، باستثناء طبعا بين الأصوليين الدينيين والمتطرفين في الجانبين . هذا دون أن نغفل محترفي السياسة مثلهم مثل أقرانهم في مختلف أنحاء العالم الذين تهمهم السلطة والكسب الشخصي والولع في اللعبة السياسية . فالخلاف إذن هو خلاف على الغزو من قبل أغراب وعلى الظلم والاستبداد والتسلط والسلبطة من قبل أناس بحق أُناس آخرين . هكذا إذاً تصدى محمد علي الطاهر لهذا الغزو الاستيطاني الذي فرض عنوة على بلاده وشعبه رغم إرادتهم ودون مشاورتهم في الأمر. ولو كان قوماً آخرين غير اليهود الأوروبيين هم الذين أُحضروا بهذه الطريقة لقاومهم بنفس الضراوة أكانوا عجماً أو حتى عربا .

علماً بأن سكان شرق البحرالأبيض المتوسط الذين تتصف حضارتهم وعاداتهم بالمشاركة قد استقبلوا خلال تاريخهم الذي يمتد إلى آلاف السنين استقبلوا موجات متتالية من المهاجرين والمنكوبين بما فيهم يهود ومسيحيين ومسلمين من كافة الأصقاع . ودون أن نطيل بذكر تاريخ يهود اسبانيا الذين طردوا من البلاد عنوة خلال محاكم التفتيش الكاثوليكية ، هناك أيضا اللاجئين الأرمن الذين جرى توطينهم في بلاد الشام بعد الحرب العالمية الأولى بدون استئذان أيا كان .

غير أن المهاجرين الأرمن اندمجوا في شعوب المنطقة ولم يهددوا أيا كان أو يستولوا على أرضه . وقد أصبح منهم فيما بعد أغنياء وفنانين ورجال قانون ووزراء ونواب في البرلمانات العربية ، بل وتبنى بعضهم القضايا الوطنية العربية والفلسطينية دون أن يطلب منهم أحداً أن يتنازلوا عن تراثهم ولا عن دينهم ولا عن هويتهم ، ودون أن يشعروا بأن عليهم أن يستعربوا أو أن يعتنقوا الإسلام كي يستفيدوا أكثر. فلو سلك المستوطنون الأوروبيون اليهود نفس الطريق وشاركوا مع الجميع لتعايش الكل بأمان . ولو كان ذلك قد حدث فربما أن مشكلة فلسطين واسرائيل لم تكن لتقع ، ولبقيت الأرض المقدسة فعلا مقدسة لجميع المؤمنين .

إلى إسرائيل . . .

ما حل باليهود في أوروبا من كوارث مؤسفة و محزنة نتيجة اللاسامية لم يكن معروفا لدى العرب ولا ذنب لهم فيه ، حيث كانوا هم أنفسهم في حالة دفاع عن النفس من التنافس بين الدول الإستعمارية الأوروبية . أما التجاذب بين مختلف الجاليات والطوائف الدينية حتى ضمن الدين الواحد فهي ليست شيئا مستغربا في العالم أجمع . أما العرب الذين كانوا يتبعون الدين اليهودي فكانوا عرباً يشكلون جزءاً لا يتجزأ من التركيبة العربية وفسيفساء البحرالأبيض المتوسط بمزاياها وعيوبها[٢٣] .

فلا العرب ولا اليهود الفلسطينيين كانوا ينوون الإستيلاء على فلسطين كل لنفسه ولا شارع أهل فلسطين من مسلمين ومسيحيين أولئك اليهود حول وجودهم بينهم لأنهم كانوا جميعا "في بيتهم". ولا شارعت بقية ملل فلسطين اليهود السامريون ولا السفراد ولا الأشكناز حول وجودهم بينهم ، ويشمل ذلك الأفراد من بين اليهود الأوروبيين الذين جاؤوا للعيش مع الفلسطينيين منذ مطلع القرن التاسع عشر.

وتجدر الإشارة إلى أن تأسيس دولة يهودية أوروبية نشأ عنه تحد لليهود الشرقيين من عرب وسفراد أصلهم من اسبانيا الذين لابد وأنهم قد وجدوا أنفسهم في موقف حرج بين أبناء دينهم من الأوروبيين من جهة ومواطنيهم العرب الذين يشاركونهم أصلهم العرقي من جهة أخرى . الأمر الذي أدى إلى مرور أجيال عديدة قبل أن يعتادوا على الوضع الجديد .

وفي هذا الصدد هنالك ظاهرة شاعت خلال العقود التسع الأخيرة ولاتزال ، ومؤداها اللجوء إلى انتقاء تعبيرات غرضها تعمية الواقع لوصف الخلاف وكأنه بين طائفتان شقيقتان واحدة يهودية والأخرى عربية تعيشان جنبا إلى جنب في فلسطين منذ آلاف السنين . أما كون الخلاف قد نشأ فعلا إثر موجات الهجرة اليهودية الأوروبية التي تكاثرت في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات بمساعدة بريطانيا فيهمل تعمدا ولا يذكر . وتستمر التعمية مشيرة إلى أن الطائفة اليهودية الصغيرة أرادت أن تنفصل وتؤسس وطنا ودولة لها ، غير أن الفلسطينين غير اليهود واجهوا ذلك الإنفصال بالقوة بمساعدة الجيوش العربية التي قامت باجتيازالحدود لمنع قيام الدولة اليهودية .

ويرمي هذا التضليل المتعمد عن سبق إصرار وبصورة متكررة إلى خلط الحقائق في أذهان غير العارفين بالأمور. وكما ورد أعلاه قاوم الفلسطينيون المستوطنين الأوروبيين اليهود المسلحين الذين جاؤوا طامعين في الأرض ، وليس الطائفة الفلسطينية اليهودية التي تعيش بأمان منذ آلاف السنين سواء في فلسطين أو البلدان العربية الأخرى .

كما لا يكف الكثيرين بين الأصوليون العرب واليهود عن وصف الخلاف بين الشعبين على أنه يعود للقرن السابع الميلادي أي مع ظهور الإسلام . وهذا غير صحيح . ما يعود لقرون خلت هو الخلاف السياسي وليس الديني الذي وقع بين بعض القبائل العربية اليهودية والقبائل العربية المسلمة في شمال جزيرة العرب أيام الرسول . و ما يعود أيضا إلى قرون غابرة هو الصراع بين الأساطير التي تغذي الخلاف بين الأديان الثلاث إلى يومنا هذا . فضلا عن أنه ليس من مصلحة أيا منهم أن يعتمدوا على تلك الأقاصيص والأساطير كأساس تاريخي للخلاف السياسي الحالي .

فالخلافات الأصلية مختلفة من حيث المسببات ومن حيث الحيز الجغرافي ، كما أنها خلافات بين أناس مختلفين تمام الإختلاف عما هو عليه الأمر اليوم . فالخلاف القديم هو خلاف بين عرب من أتباع ملل مختلفة . أما الخلاف الحالي فهو بين عرب مسلمين ومسيحيين من جهة ، وأناس من أجناس أخرى وإن كانوا من أتباع الدين اليهودي من جهة أخرى .

إذا اعتمدنا على تلك الأسس المتشابكة لمحاولة إيجاد حل للمشكلة فسوف يكون من الصعوبة بمكانة مجرد القيام بحوار يرتكزعلى المنطق حول موضوع في غاية التعقيد مثل محادثات السلام بين أعداء في العصور الحديثة ![٢٤]

العرب واليهود والإسرائيليين : كي نحيط بالواقع المعقد

أهل فلسطين عرب سواء ثقافيا أو من حيث القومية . أما عرقيا فينحدرون من هجرات بشرية على امتداد مئات السنين من أقوام أخرى منهم العرب والكنعانيين والفينيقيين واليونان والإيطاليين والمالطيين والرومان والمصريين والأفارقة وقبائل البربر من شمال أفريقيا والأكراد والأتراك والفرس والشيشان والداغستانيين والشركس وكذلك أحفاد الصليبيين الذين أتوا إلى البلاد من شرق وغرب أوروبا وغيرهم .

والشعب الفلسطيني اليوم مبعثرجغرافيا على غرارالشعب اليهودي أيام الشتات .

أ) فهناك الفلسطينيون الذين لا يزالوا يسكنون وطنهم الأصلي والذين أصبحوا مواطنين اسرائيليين ، وقد أضحى مجرى حياة هؤلاء خليطا بين تراثهم التاريخي العربي وواقعهم ضمن المجتمع الإسرائيلي .

ب) هناك جموع من اللاجئين موزعين في عدد من الدول العربية المجاورة ، غالبيتهم بدون جنسيات وإن كان بعضهم قد حصل على جنسية البلد المضيف . أما من لم يسعده الحظ بالحصول على جنسية أخرى أي أضحى دون جواز سفر اعتيادي بل يسافر معتمدا على وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين من مميزاتها أنها تجعل سفر الحيوانات أسهل من سفر اللاجئين.

ج) هناك شتات فلسطيني في مختلف أنحاء العالم وعلى جميع القارات ، البعض منهم مجنس مثل الفلسطينيون الأمريكان على سبيل المثال ، والبعض يحمل إقامات عمل مؤقتة مثل الفلسطينيون الذين يحملون الجنسية الأردنية ولكنهم يعيشون في المملكة العربية السعودية على سبيل المثال .

د) هناك سكان الضفة الغربية الذين يعيشون تحت الإحتلال الإسرائيلي في وضع يشبه الوضع في المعتقلات وتحيط بهم الأسوار وأبراج المراقبة والجنود المدججين بالمدافع الرشاشة .

هـ) وأخيرا هناك قطاع غزة الذي يعامل سكانه من قبل الجميع على حد السواء وكأنهم معزولين في مستعمرات الجذام أو مثل منبوذي الهند على أفضل تصوير.

تحدد الديانة التي ينتمي إليها المواطن في الشرق الأوسط ومذهبه إلى حد كبير هويته كما هو الحال في إيرلندا الشمالية. وهكذا يشيرالفلسطينيون وكافة العرب إلى الإسرائيليين "باليهود" أي أتباع "يهوه" ، وهي التسمية الشائعة منذ الأزل . أما سكان فلسطين الذين أصبحوا مواطنين اسرائيليين ، فيطلق العرب عليهم بصفة عامة اسم "فلسطينيو اسرائيل" أو "عرب اسرائيل" ، أو "عرب 48" . والتسمية الأخيرة غير محبذة من قبل بعض مواطني اسرائيل من الفلسطينين ، حيث يعتبرونها تسمية جارحة وإن لم يكن ذلك مقصودا بالطبع بل هو مجرد استعمال شائع .

يعتبراليهود أن اليهودية هي هويتهم كأمة وكأتباع عقيدة دينية أيا كان أصلهم العرقي ، حيث أنهم مختلفين عن بعضهم من تلك الزاوية ، فهناك من هو أوروبي أو آسيوي أو أفريقي أو عربي وهكذا يراهم غير اليهود . وقد وفر قيام دولة اسرائيل لليهود مكانا يتجمعون فيه من كل مكان تحت مظلة جنسية واحدة (وإن كان الكثيرين منهم يحملون أكثر من جنسية) . صحيح أن غالبية الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين والدروز الذين لم يغادروا فلسطين عند إعلان دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ أصبحوا مواطنين اسرائيليين ، إلا أنه عندما يشير المرء إلى شخص اسرائيلي بصفة عامة إنما يعني بذلك شخصا يهوديا .

يشير معظم الإسرائيليون إلى الفلسطينيين "بالعرب" ، وهي تسمية تستخدم أحيانا بقصد تحقيرهم أو كإحدى وسائل طمس شخصيتهم أو كينونتهم كشعب ، وتشمل تلك التسمية مجمل أهل البلاد من مسيحيين ومسلمين . وإذا أراد الإسرائيليون تحديد الفئة التي يشيرون إليها كمجموعة مختلفة فإنهم يشيرون إليهم "بالعرب المسلمين أوالمسيحيين" . أما الفلسطينين من أتباع العقيدة الدرزية والمقيمين في اسرائيل إنما يشار إليهم "بالدروز" فقط ، حيث أن السلطات الإسرائيلية تعاملهم بطريقة مختلفة عن معاملتها لباقي الفلسطينيين .

ينظر جانب كبير من الإسرائيليين إلى الفلسطينيين باستعلاء مثلما كان النازيين في ألمانيا ينظرون إلى اليهود بازدراء . وأي عربي أو مسلم يشتبه في احتمال كونه إرهابي . هذا ويرى معظم العرب في كل شخص يهودي عميل مخابرات اسرائيلي . أما المستوطنين فيعتبروا بمثابة عصابات مسلحة تعمل بتصريح رسمي من قبل الدولة . وهذه بالطبع أمور محزنة وإن كانت غير مستغربة . وعلى الشعبين أن يعترفا بتراث بعضهما البعض كي يتمكن كل منهما أن يتعرف على تراث الآخر. ورغم صعوبة الأمرعند البعض ، فإن نظرة الإسرائيليين والفلسطينيين الشمولية يجب أن تشمل طبعا كل من هم حولهم . قد يكون التلفظ بذلك أسهل من تنفيذه ، إلا أنه من المهم البدأ بالخطوة الأولى ، ولعل التربية والتعليم في المنزل والمدرسة هما أفضل نقطة انطلاق نحو إيجاد تسوية بين الطرفان يليها إحلال السلام بين الشعبين .

رغم ما ذكرناه أعلاه يجب ألا نغفل عن وجود عدد كبير بين الإسرائيليين واليهود الغربيين الذين يعترضون علنا على معاملة حكومة اسرائيل للفلسطينيين . وإلى جانب هؤلاء هنالك عددا متزايدا من الإسرائيليين بما فيهم بين العسكريين الذين اتخذوا مواقف علنية مبدئية وشجاعة ضد حكومتهم عن طريق رفض تأدية الخدمة العسكرية في الضفة الغربية أو في غزة ، والذين نالوا قصاصا شديدا نتيجة لذلك . وقد اتخذ هؤلاء تلك المواقف لكون نظرتهم أبعد من تلك التي يتمتع بها محترفي السياسة ، كما أنهم يرون أن اسرائيل تقع في الشرق الأوسط وليس في جزيرة جرينلاند في شمال الأطلنطي ! أليست جذور الشعب اليهودي في الشرق الأوسط وليس في أوروبا الشرقية أو الغربية ؟ ذلك ما يردده اليهود أنفسهم وهم الذين رسموا تاريخهم وتجمعهم حول ذلك الواقع .

عندما يرى أعضاء حركات المقاومة السلبية الفلسطينية الإسرائيلية المشتركة المعاملة غير الإنسانية التي يعامل بها الفلسطينيون من قبل النظام فإنهم لا يتوانوا عن التعبير عن معارضتهم[25] . وكم من شاب وشابة حتى بين الأجانب مثل الشابة الأمريكية ريتشيل كوري Rachel Corrie قتلوا أو جرحوا عمدا أو بدون قصد بسبب نشاطهم السلمي القاضي بمنع استمرار إغتصاب الأرض من الفلسطينيين . ولايزال الكثيرين يقاومون دون أن يخيفهم الإرهاب الإسرائيلي .غير أن الوضع العام في اسرائيل مثله مثل باقي البلاد حيث لا تريد الجماهير سوى أن تعيش ببساطة ودون مشاكل فيمتنعون عن أخذ المبادرة ويتركوا للسياسيين الإمساك بدفة السفينة دون مسائلة .

لقد أصبح الوضع على الأرض بين الفلسطينيين والإسرائيليين يشبه إلى حد كبير ما كان بين رعاة البقر(الكاوبوي) والهنود الحمر في أمريكا فيما مضى! فالحكومة الإسرائيلية والمستوطنون الذين يلعبون دور "الكاوبوي" يعملون كل ما بوسعهم لعزل الفلسطينيين ودفعهم إلى الموت خنقاً اقتصاديا أو نفسيا. وذلك عن طريق حصرهم كخطوة أولى ضمن محميات مثل تلك التي وُضع فيها الهنود الحمر في أمريكا الشمالية قبل الشروع في ترحيلهم جماعيا نحو الدول العربية المجاورة في أول فرصة تسنح لهم أو على دفعات .

حيث تقوم بعض المجموعات الإسرائيلية ، خاصة من بين الأصوليين المتطرفين غير المنضبطين التي تفهم سيكولوجية الفلسطينيين بارتكاب اعتداءا ضد الفلسطينيين أو يقومون بتأدية "زيارة" لمركز ديني تدور حوله خلافات بغية جر أرجل الفلسطينيين على الرد بالمثل ، الأمر الذي يدفع الحكومة إلى قصف السكان العرب بوحشية بحجة "الدفاع عن النفس". ومع شديد الأسف لا يزال الفلسطينيون يمكنون اسرائيل منهم بتلك الطريقة البدائية . ولعل أفضل مثال على ذلك هو الصواريخ التي تطلق من قطاع غزة عبر الحدود نحو أهداف غير محددة في الجانب الإسرائيلي .

المزايا التي تتمع بها اسرائيل[26]

من أهم الأسباب التي تؤمن نجاح استراتيجية اسرائيل هو كونها تفهم عدوها فهما عميقا. حيث تتابع المؤسسة الإسرائيلية نشاط ذلك العدو منذ عشرات السنين ، كما أنها تفهم بصورة عامة طريقة تفكير العرب وخاصة الفلسطينيون. مع الأسف أن فهم المسؤولين الفلسطينين للمنطق الإسرائيلي لم يبلغ نفس المستوى .

تتمتع اسرائيل بالمزايا التالية في محاربتها "للإرهاب المحلي":

١ – اسرائيل متواجدة داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة التي تعتبرها مهد الإرهاب ، الذي يعتبره الفلسطينيون مقاومة لسيطرة اسرائيل على حياتهم.

٢ – تسيطر اسرائيل على كافى الأراضي والحدود والمجال الجوي والمياه الإقليمية وكافة الموارد المائية والزراعة ، وكل ما يتعلق بالبناء والإعمار في الأراضي المحتلة.

٣ – يتمتع القطاع العسكري الإسرائيلي بحرية دخول الأراضي المحتلة سواء تلك التي تتواجد فيها السلطة الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربية ، أو تلك الواقعة تحت سيطرة حركة حماس في قطاع غزة. ويشمل ذلك الإغتيالات المقصودة ونسف المنازل في بعض المناطق أو الإستيلاء عليها في مناطق أخرى.

٤ – نظرا لكون أراضي اسرائيل تحاذي الأراضي الفلسطينية المحتلة فإن ذلك يمكن أجهزة المخابرات التابعة لها من استخدام مختلف وسائل الرصد وجمع المعلومات.

٥ – تلجأ اسرائيل إلى تشجيع الفلسطينيون سواء مباشرة أو عن طريق خلق الظروف المواتية كي ينتفضوا وينفذوا أعمالا هجومية أو يقوموا بإطلاق صواريخ مصنعة محليا ضد أهداف اسرائيلية كي تستخدم تلك العمليات لتبرير نفي بعض الفلسطينيين أو تبريرها "كعمليات دفاع عن النفس ضد الإرهاب. أما الهدف الرئيسي الذي لم تحيد عنه اسرائيل مطلقا منذ المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ فهو انتزاع الأرض من الفلسطينيين قطعة بعد قطعة بنفس الطريقة التي كان يتبعها الكاوبوي ضد الهنود الحمر في أمريكا ، ومنعهم من أن تطئ قدمه تلك الأرض إلى الأبد .

وما نراه اليوم ليس إلا استمرارا لنفس المشكلة منذ ١٩١٧ . من جهة هناك حكومة اسرائيل التي ما فتأت تلجأ إلى كافة الحيل التي يمكن أن ينسجها الخيال لضم أقصى ما يمكن ضمه من أراض فلسطينية دون سكانها ، ومن جهة أخرى هناك شعب فلسطين الماضي في صموده ، والذي يبذل محاولات غير مجدية للإحتفاظ بأرضه والبقاء على قيد الحياة رغم وقوعه فريسة لمختلف مراكز القوى السياسية والعقائدية المحلية التي أثبتت عدم كفاءتها وانعدام المسؤولية والمحاسبة من قبل المواطنين أيا كانت التسميات أو الألقاب الرنانة التي أطلقوها على أنفسهم . ويعتبر الإسرائيليون أعمال العنف التي يقومون بها ضد الفلسطينيين بأنها إرادة ربانية (مثوى باللغة العبرية) كي يمكنهم استعادة أرض الميعاد كما يعتقدون . أما الفلسطينيون فيبرروا هجماتهم حتى ضد الأبرياء في اسرائيل بأنها واجب ديني يأمرهم بالجهاد في سبيل الله لتحرير وطنهم من أيدي المحتلين الأجانب .

إذا نظرنا إلى الواقع بما فيه من علل ، فقد أصبح تاريخ شعب فلسطين جزءا من تاريخ اسرائيل ، كما يشكل تاريخ اسرائيل جزءا من تاريخ الفلسطينيين . ومن مصلحة الشعبان أن يعرفا تاريخ بعضهما البعض كما هو في الواقع وليس كما يحلو لمخيلتهم أن تراه . فقليلون هم الذين يعرفون ، بينما يظن البعض أنهم يلمون بهذا التاريخ ، في الوقت الذي ليست لديهم أي فكرة عنه . أما غالبية القوم فيعيشون وكأن الأمر لا يعنيهم .

الغرض من تحليل الأمور كما تقدم هوالفصل بين الصالح والطالح وتسمية الأشياء بأسمائها على ضوء التاريخ والواقع الحالي وليس على أساس الأساطير والحواديت القديمة .

. . . ثم إلى إسرائيل وفلسطين ؟ أم إلى أين؟

تمهيد الطريق نحو المستقبل

قد يسهى عن البعض أن النظر إلى الأمام هو أفضل ضمان للوصول إلى الهدف بدلا من الإدعاء بالسير قدما بينما ينظر المرء في المرآة الخلفية ! لقد "عاد شعب اسرائيل من الشتاة كي يعيش بسلام في ارض صهيون" حسب التعبير اليهودي . سلام لليهود ، وكلنا أمل أن يشمل ذلك السلام من حولهم . اليوم يعيش شعب فلسطين شتاته داخل وطنه التاريخي وخارجه . وهو أيضا يبحث عن السلام ويطمح إلى العودة إلى وطنه كما فعل اليهود .

لا شك في أن الفواجع التي وقعت خلال المائة سنة الأخيرة تركت جرحا عميقا ومؤلما في تاريخ الشعبين الفلسطيني واليهودي ولذلك فإنهما بحاجة لفترة نقاهة تدريجية تحت العناية الفائقة كي تنجح . هذا بالطبع إذا كانت لدى الشعبان الإرادة والقدرة اللازمة لتحديد مسارهما معا بصدق وحرية . أما إذا لم تكن عندهما القدرة على ذلك أو ما هو أسوء ، إذا لم لتكن لديهما الإرادة اللازمة لإعادة النظر في طريقة معالجتهما للمشكلة ، فعلى السلام السلام ليس لهما فقط ، بل وللعالم أجمع .

أدين عدة كتاب اسرائيليين من قبل مناوئيهم الذين يصفونهم "بالمرتدين" ، في الوقت الذي كانوا فيه على مستوى عال من الإتزان الفكري والدقة في تغطيتهم لمجمل القضية منذ منشئها[27] . غير أن هناك من يعجزون عن تخطي تحيزهم وعمى بصيرتهم المتعمد وعدم قدرتهم على الإقرار بأن العذاب يصيب كل الأحياء أكانوا بشرا أو حتى حيوانات وأنه ليس وقفا على الشعب اليهودي فقط .

وهذا الوضع يجد مثيله في الجانب العربي حيث العمى المتعمد حيال الواقع منتشر هو الآخر وعلى الأخص بين المسؤولين . فالأشخاص الذين على تلك الشاكلة إنما يعشقون ما يقولونه وتدور حياتهم حوله أكان له أساس من الصحة أم لا ، وسواء نتج عنه ضرر حتى لمصالحهم أم لا . وتشكل تلك النماذج خطرا مميتا لإمكانية إيجاد تسوية ملائمة للطرفين أو سلام في المستقبل بين الفلسطينيين والإسرائيليين والعرب وكل من له مصلحة في استتباب السلام في العالم . وبفضل أمثال هؤلاء لم يكن هنالك نقص في الأسباب التي أدت إلى فشل مبادرة السلام وخرائط الطريق واتفاقيات السلام المرحلية رغم حسن نية الكثيرين غيرهم من الذين كانوا يفكرون بكل واقعية ويملئ أمخاخهم .

في معرض إجابته على تساؤلاته "لماذا فشل اتفاق أوسلو؟"[28] قال الكاتب الإسرائيلي أوري أفنيري أن "الإتفاق بني منذ البداية على أساس مهتزلأنه كانت تنقصه رؤية واضحة بالنسبة للهدف النهائي لمسيرة السلام" . ويضيف أفنيري قائلا أنه " بالنسبة (للزعيم الفلسطيني ياسر) عرفات كان الأمر واضحا أن "المراحل المؤقتة" سوف تقود إلى دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ربما مع تبادل طفيف في الأراضي . أما القدس الشرقية بما فيها الأماكن المقدسة بالطبع فسوف تصبح عاصمة لفلسطين ، وأنه سوف تتم إزالة المستوطنات" . ويقول أفنيري "أنني مقتنع بأن (عرفات) كان سيقبل بعودة رمزية لعدد محدود من اللاجئين إلى اسرائيل ."

"غير أن هدف رابين لم يكن واضحا حتى لنفسه" حسب قول أفنيري . حيث أنه لم يكن مستعدا في هذا الوقت لقبول دولة فلسطينية . ونظرا لعدم وجود هدف متفق عليه فشلت "المراحل المؤقتة" .... فرابين وليد الفكر الصهيوني التقليدي ... وكان يحمل في جسمه الشفرة الجينية للحركة الصهيونية التي كان هدفها منذ البداية هو تحويل أرض اسرائيل إلى دولة يهودية صرف لا تعترف حتى بوجود الشعب العربي الفلسطيني كما أن منطقها نتيجته تهجير هذا الشعب ... وكغيره من أبناء جيله في اسرائيل فقد تشرب تلك العقيدة مع حليب أمه وتربي عليه باستمرار . وفي اللحظة الحرجة من حياته واجهه صدام داخلي . فعقله التحليلي أشار إليه بإقامة السلام مع الفلسطينيين و"التنازل" عن قسم من بلده وإزالة المستوطنات ، بينما الجين الصهيوني الذي نشأ عليه كان يرفض ذلك بكل قوته . وقد بدى ذلك واضحا كل الوضوح خلال حفل التوقيع على اتفاقية أوسلو حين قدم يده لمصافحة عرفات لأن عقله أشار إليه بذلك ، إلا أن حركات جسمه دلت على رفضه ذلك ."

هذا ولم يتوقف أفنيري عند تحليل ما لم ينجح ، بل اقترح حلا للمشكلة عندما ذكر في نهاية المقال أنه "من المستحيل إقامة السلام دون التزام فكري وحسي ، كما لا يمكن تغيير مسار أي حركة تاريخية دون إعادة النظر في تاريخها ، كما أنه لا يمكن لزعيم أن يقود الجماهير نحو تغيير شامل (كما فعل مصطفى كمال أتاتورك في تركيا على سبيل المثال) إذا لم يكن هو نفسه متبتلا لهذا التغيير. كما لا يمكن إقرار السلام مع عدو دون تفهم واقعه ."

ولكن مع الأسف أن القوى الداخلية في اسرائيل التي قامت بخلق مناخ أتاح لجريمة اغتيال (رابين) كانت هي الرابحة في نهاية الأمر ، وكان الخاسران هما شعب اسرائيل والشعب الفلسطيني . علما بأنه يجب أن لا نغفل أنه في عالم متشابك فإن الجميع يخسر مع الشعبان .

ولعله من المفيد أن نضيف أنه بعد عقود من الزمن تميزت بأعمال العنف ، فلا الفلسطينيين ولا اليهود كانوا "مبرمجين" كي يعرفوا كيف يحققوا السلام . فضلا عن أنه كان لدى كل جانب فريق يعارض مسيرة السلام بكافة أشكالها . ولا يريد أن يرى أي اتفاق يأخذ الآخر بعين الإعتبار . ففي نظر هؤلاء الرافضون المشاركة عبارة عن خسارة وهزيمة .

على طريق إيجاد تسوية ملائمة ومقبولة من الطرفين

في تلك المرحلة المبكرة من البحث عن حل لقضية فلسطين ، إذا كان الهدف هو إيجاد حل لها وليس حل فلسطين ، أي تفكيكها للتخلص منها ، يجب أن نبدأ بالبحث عن تسوية ملائمة للطرفين قبل أن نتحدث عن سلام ، فالشروط الأساسية الواجب توفرها لإحلال السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين غير متوفرة في الوقت الحاضر. خاصة وأن الشعبان مختلفان تمام الإختلاف الواحد عن الآخر: فشعب منهم أوروبي بشكل عام ، والثاني شعب تقليدي مثله مثل باقي شعوب الشرق الأوسط . وإذا كان الشعبان يحبان تناول "الحمص بطحينة" ، فإن ذلك لا يعني أوتوماتيكيا أنه يمكنهما أي يتشاركا السرير!

هناك في الجانب العربي من يحلم بحل للمشكل عن طريق دولة واحدة تجمع الطرفان على أمل أن يعمل التكاثر السكاني الطبيعي بين العرب على تخطي عدد اليهود . هؤلاء يعيشون في أحلام اليقظة . أما أولئك في الجانب اليهودي الذين يظنون أن الفلسطينيين سوف يقبلوا أن يتحولوا إلى أغوات وأن يتم تدجينهم في نطاق حل يدورحول دولة واحدة وأن يصبحوا خدما ويدا عاملة رخيصة هم يضا يحلمون .

من المؤسف أنه من بين العرب والفلسطينيين هنالك من يحلم "بإلقاء اليهود في البحر" ، كما أنه هنالك بين اليهود من يحلم بحل نهائي للقضية برمتها عن طريق ترحيل الفلسطينيين جملة وتفصيلا إلى البلدان المجاورة . ليس بمقدور العرب أن يحققوا أحلامهم ، إلا أنه باستطاعة اسرائيل أن تحقق ما تريد . ولعل ردود الفعل المتوقعة هي أن يعقد مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة جلسة عاجلة لبحث الموضوع ولكن سرعان ما ترفع الجلسة نتيجة "فيتو" تدلي به إحدى الدول العظمى . هذا إلى جانب اجتماع عاجل لجامعة الدول العربية يقوم خلاله المندوبين بالصياح والزعيق ويقفزون أعلا وأسفل قبل أن يقيموا مآدب عشاء ويصدروا بلاغات "يطالبوا" فيها بكذا و"يصروا" في أخرى على شيء آخر. كما أنه ربما تسنح الفرصة لأحدهم للقيام بعقد مسابقة شعر على مستوى العالم العربي، إلا أن النتيجة بالنسبة للفلسطينيين ستكون ضياع وطنهم ضياعا كاما وتقوم مخيمات اللاجئين في بيروت وعمان باستقبال مليوني لاجئ فلسطيني آخر بالإضافة إلى ما تكتظ به . فهل هذا ما نريد؟ طبعا لا!

ذكر في الأقصوصة الشهيرة "أليس في بلاد العجائب" التي ألفها الكاتب البريطاني تشارلز لاتفيدج دودجسون (المعروف باسم لويس كارول) التي نشرها عام ١٨٦٥، ذكر أنه لما وجدت أليس نفسها ضائعة في الغابة وقابلت القط الجالس على غصن شجرة طرحت عليه السؤال التالي: "عفوا ، هل يمكنك أن تدلني إلى أين يجب أن أذهب انطلاقا من هنا ؟" أجابها القط متهكما : "يعتمد ذلك إلى حد كبير على وجهتك التي تودين السير نحوها !"[29] .فإذا أخذنا ذلك بعين الإعتبار في مجرى البحث عن تسوية مقبولة من الطرفان ، يتعين علينا أن نبدأ طريقنا بتحديد المعنيين فيه ، ومن هم المسؤولين ، وكيف ينظرون إلى بعضهم البعض ، وما هو مبتغاهم، وما هي مواقفهم وماذا يجب أن يحدث قبل أن نبدأ التحدث عن تحقيق السلام بين الأعداء .

من هم المسؤولين

حكومتا اسرائيل وحكومتا فلسطين

هناك حكومتان لإسرائيل في العالم ؛ حكومة اسرائيل المنتخبة في القدس ، والحكومة القائمة باختيار أعضائها في العاصمة الأمريكية واشنطن ، أي "لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية المعروفة باسم (AIPAC) مع ما يتصل بها من مؤسسات أخرى ، بل ومنافسين أيضا . وتتمتع تلك اللجنة بنفوذ كبير في الولايات المتحدة يفوق نفوذ النقابات العمالية واتحاد السلاح الوطني مجتمعة . وهي مكونة من ائتلاف يشمل مسؤولين حكوميين وإعلاميين ورجال أعمال وماليين بما في ذلك شخصيات من بين اليهود وغير اليهود الذين تجمعهم أهداف مشتركة .

ويديرعمليات (AIPAC) أخصائيين متفرغين وميزانية قوامها عدة ملايين من الدولارات يأتي معظمها من تبرعات معفاة من ضرائب الدخل يتم جمعها مباشرة أو غير مباشرة من المواطنين أكانوا يهودا أم غير يهود . ويساند هذا البنيان شبكة واسعة من المتطوعين العاملين بكل جد ، بعضهم شديد التدين والبعض الآخر لا يشكل الدين بالنسبة له عاملا أساسيا ، والبعض الآخر يحمله إيمانه إلى التطوع في جيش الدفاع الإسرائيلي وإن كان حاملا للجنسية الأمريكية.

تعمل تلك المنظمات في أمريكا الشمالية على أساس ما تقرره هي على أنه في مصلحة الجاليات اليهودية ، معتبرة أن تلك المصلحة مطابقة لمصلحة اسرائيل . ولكن ذلك ليس صحيحا في جميع الأحوال حيث أن سكان اسرائيل هم الذين تأتيهم الضربات وليس أولئك المقيمين في أمريكا الشمالية . وأحيانا تجد حكومة اسرائيل أن تلك المنظمات وأعمدتها في البيت الأبيض والكونجرس ومجلس الشيوخ وأجهزة المخابرات ووزارة الدفاع ووسائل الإعلام ومختلف المعابد اليهودية والمؤسسات المالية ، تجد أن تلك المنظمات قد اختطفت سياستها مع الولايات المتحدة ، علما بأن تلك المنظمات يمكنها أن تتبنى أكثر المواقف تطرفا حسب رغبتها ، وهكذا تفرض تلك المنظمات ضغوطا على الحكومات الإسرائيلية المنتخبة الواحدة تلو الأخرى كي تقبل ما تقوله وما تفرضه على أساس القول المأثور "ما هو في صالح يهود أمريكا هو في صالح اسرائيل" .

في الوقت الذي قد تختلف فيه حكومة اسرائيل مع (AIPAC) حول من يمثل اليهود في العاصمة الأمريكية ، فإن كلا من السفارة الإسرائيلية في واشنطن و (AIPAC) يدركان تمام الإدراك أنهما في حاجة الواحد منهم إلى الآخر . حيث أن اسرائيل في حاجة إلى منظمات مثل (AIPAC) وغيرها مثل مؤتمر رؤساء المؤسسات الأمريكية اليهودية الكبرى للحصول على مبتغاها من الحكومة الأمريكية وهو ما تحصل عليه فعلا ، كما تساعد (AIPAC) على تحصيل جانبا من بلايين الدولارات التي تتسلمها اسرائيل منذ سنوات عديدة من الولايات المتحدة والتي تبلغ ٤٦ر٥٠٠ دولار سنويا عن كل مواطن اسرائيلي حسب تقارير الصحافة . ولكي تتمكن من تبرير وجودها وتسويغه والإنفاق على عملياتها فإن (AIPAC) تعتمد على الإيمان الشديد بين اليهود بأن مساندة اسرائيل مثوى مصدرها الإرادة الإلهية .

هذا وتستند قوة تلك المنظمات في أمريكا الشمالية على عدة أعمدة وعلى الأخص إمساكها بمقتل حكومة الولايات المتحدة والسلطة التشريعية . وبطبيعة الحال لا يقرأي أمريكي بأن ذلك هو الواقع[30] .

وإذا كان هنالك من يعتقد بأن حكومة الولايات المتحدة سوف تضع ضغوطا ملموسة على المدى الطويل على اسرائيل للتفاهم مع الفلسطينيين إنما يعيش أضغاث أحلام . فحكومة الولايات المتحدة لا تساند سوى الأقوياء والمنظمين وأولئك الذين يدافعون عن مصالحهم بكل قواهم على مدار الساعة . والدور الذي تلعبه (AIPAC) مثلا حيا لمثل هذا الصمود .

ماذا يريد الإسرائيليون؟

الأمر المثير للتعجب هو أن الأمة ذات الشهرة العالمية في العديد من المجالات مثل الفنون والعلوم والفلسفة والأعمال الخيرية والشؤون المالية والإعلام وغيرها ، أي الأمة اليهودية ، قد تخلت عن مُثُلها اليهودية العالية واستقلالها الفكري الذي تشتهر به بين أيدي سياسيين متطرفين ورجال دين أصوليين . ليس هذا فحسب ، بل يساندون بطريقة شبه عمياء ودون أي مساءلة دولة تصف نفسها بأنها "الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط" في حين أنها أصبحت رائدة بين الدول في مجال انتهاك حقوق الإنسان مثلها مثل العديد من الدول العربية المحيطة بهم وإن كان ذلك خلف ستار قانوني يكاد المرء أن يصدقه .

لو أن نفس الجهود والوقت والمثابرة والمال والفكرالخلاق الذي بذلته الحكومات والمنظمات ومؤسسات الدراسات في تخليد المصائب التي حلت بالشعب اليهودي في تاريخه إلى جانب البحث عن المخربين في كل شيء وأي شيء عربي أو إسلامي ، لو كان نصف تلك الجهود قد استثمر في البحث عن تسوية ملائمة للطرفين بينهم وبين جيرانهم الفلسطينيين ، لكان بالإمكان إيجاد تسوية مقبولة للطرفين منذ زمن طويل .

هذا وتعود مسؤولية المبادرة على الإسرائيليين أولا لأنهم هم المحتلين وليس على الفلسطينيين . غير أنه يتعين على الفلسطينيون أن يلعبوا دورهم كشريك كامل في المبادرة . ورغم ما عاناه الفلسطينيين من آلام وحرمان فإنه يعود عليهم سواء كانوا يسكنون الضفة الغربية أو غزة أو في أي مكان من العالم أن يعملوا ويثابروا في الإستفادة من كل الوسائل المتاحة لهم لدعم صمودهم الداخلي والخارجي وعدم إضاعة فرصة إيجاد تسوية ترضي الطرفين وإلا فعلى السلام السلام كما ورد أعلاه .

أما ما يكرر ذكره رئيس وزراء اسرائيل السابق الجنرال إيهود باراك حول "العرض السخي" الذي تقدمت به اسرائيل ورفضه الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات ، إنما هو مجرد واحدة من العبارات الرنانة غير الصادقة التي تخترع من وقت لآخرمثل الإعلانات التجارية والتي تذاع باستمرار حسب المثل الشائع "التكرار يعلم الحمار"! فباراك الذي يكرر تلك العبارة التي تشبه مقولة "أرض بدون شعب لشعب بدون أرض" وكل من حوله يكررها بعده كالببغاء يعرف ذلك حق المعرفة . لو كان الوضع معكوسا وقُدم عرضا "سخيا" من هذا النوع له لكان باراك أول الرافضين لـه .

لقد حقق أتباع الدين اليهودي حلمهم التاريخي القاضي بجمع الشمل ، وهو الأمر الذي وضع بين أيديهم في النهاية ليس فقط الأماكن المقدسة اليهودية بل المسيحية والإسلامية أيضا . أما السياسة التي تتبعها حكومة اسرائيل باسم يهود العالم والقاضية بسحب الأرض من تحت أقدام شعب فلسطين عن طريق بناء مستوطنات أو غيرها من الحجج ، فلا يمكن وصفها سوى بالجشع الرسمي . غير أنه من حسن الحظ أن تلك السياسة لا تحظى بتأييد جميع اليهود سواء في اسرائيل أو في العالم .

في كتابه الصادرعام ٢٠٠٩ والمعنون "دولة واحدة أم دولتان : إيجاد حل للخلاف بين اسرائيل وفلسطين" الذي يستعرض فيه مختلف الإقتراحات المتداولة لإيجاد حل في المستقبل للقضية الفلسطينية ، يشير الكاتب بِنّي موريس بدون اقتناع إلى ما كتبه كاتب آخر هو توني يود الذي يصفه بِنّي موريس بكونه "من يهود المحرقة" في مقال نشر له عام ٢٠٠٣ بعنوان "اسرائيل: الحل الآخر" حين يقول توني يود أن "اليهود غير الإسرائيليين يجدون أنفسهم معرّضين للهجوم بسبب أشياء لم يقترفوها (أي تصرفات اسرائيل في الأراضي المحتلة – كما يفسر بِنّي موريس) . غير أنه في تلك الحالة فإنهم أسرى في أيدي دولة يهودية وليس دولة مسيحية . ويضيف يود قائلا: "أن الواقع المؤلم هو أن اسرائيل اليوم ليست في صالح اليهود" [31] .

يقول بِنّي موريس أنه "من الواضح اليوم أنه لا يوجد أي مسؤول اسرائيلي علي استعداد للإنسحاب من الضفة الغربية ، سواء من جانب واحد أو بالإتفاق مع الفلسطينيين قبل أن تكون لدي جيش الدفاع الإسرائيلي الإمكانيات التقنية لحماية التجمعات السكانية من الصواريخ القصيرة المدى (أي التي تطلق عليها من قطاع غزة) . هذا بالطبع لا يزيد عن كونه ورقة تين . فالسبب الحقيقي هو أن اسرائيل لا تريد أن تترك الأرض تفلت من بين يديها . ويقول بِنّي موريس فيما بعد أن "غـالبية الإسرائيليين لا يزالوا يفضلون الإنسحاب من الضفة الغربية ضمن إطاراتفاقية سلام مع الفلسطينيين" . إلا أنه يضيف إلى ما صرح به بأنه "من غير الواضح إذا كان الإسرائيليين يساندون اتفاقا يقضي بانسحاب اسرائيلي من مدينة القدس بكاملها أو من أجزاء كبيرة منها بدون اتفاق سلام شامل ونهائي". ثم يستند على نتائج استطلاعات الرأي بين الإسرائيليين ويقول أن "الغالبية العظمى بين الإسرائيليين يساندون التقسيم وحل القضية على أساس دولتان كما بينت استطلاعات الرأي باستمرار منذ عدة عقود من الزمن [32] ".

اليوم لا أحد يبالي لدى الطرفان . في بعض الأحيان ينفذ الجنود الإسرائيليون الأوامر التي تأتيهم بدون روية ، وفي أحيان أخرى يأتي هؤلاء الجنود وضباطهم وقادتهم من أسر أصولية في تدينها أو أسر ناشطة في الحركات السياسية المتطرفة وعلى ثقة بأنهم على حق فيما يقترفونه .

والفلسطينيون يعتقدون من جهتهم بأنهم لا يخسرون شيء إذا استشهدوا سوى أغلالهم . ويعتبرون أن الصمود ومقاومة المحتل عسكريا هو الشيء الوحيد المتبقى لهم والذي يفتخرون به . وهو وضع لا يختلف عما كانت عليه المقاومة الفرنسية ضد الإحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية . حيث لم تثبت حركات المقاومة هذه فعاليتها ميدانيا أمام الجحافل النازية ، غير أنه يستحيل على المواطنين أن يُكتّفوا أيديهم ويتركوا عدوهم يسحقهم . ومقاومة الحي اليهودي "الجيتو" في العاصمة البولندية وارسو للنازيين الذين بنوا هم أيضا حائط حول الحي لعزل اليهود تشكل نموذجا آخر . وقد تجلب الصواريخ التي تطلق على المستعمرات الإسرائيلية راحة نفسية لمطلقيها ، ولكنها توفر لإسرائيليين ما قد يدفعون ذهبا ثمنا له وهو تسويغ لضرباتهم الإنتقامية الوحشية باسم الدفاع عن النفس . والعالم يوافقهم على ذلك .

يقول المثل الشائع "من جد وجد" . والجد يتطلب إرادة ، وإلى اليوم تلك الإرادة غير متوفرة ، وإن لاحت في الأفق تحولوا عنها أو تجاهلوها أو قتلوها . فكل من المتطرفين الإسرائيليين وجماعة الـ (AIPAC) الذين يتوجون الملوك والذين يعتبرون أنفسهم الطرف الحقيقي الوحيد في تلك القضية لم يكن عندهم أي اهتمام بالتوصل إلى حل لا يعطيهم اجمالي فلسطين دون أي فلسطيني لا يزال يتنفس عليها . ولو تمكنوا من استئصالهم (التعبير الألماني الأكثر دقة لوصف ذلك هو "فرنيشتونج") أو إبعادهم عبر الحدود نحو الأردن أو لبنان أو سوريا أو مصر ، أو تفريغهم في مكان ما في نهاية المعمورة لقاموا بذلك منذ زمن طويل .

من يحكم الفلسطينيين؟

مثلهم مثل اليهود ، لدى فلسطينيي الأراضي المحتلة حكومتان . واحدة تعتبر نفسها أنها تمثل الحكم السمواي في غزة والأخرى تمثل الحكم الدنيوي على الأرض في الضفة الغربية . وهي تعكس بذلك إلى حد ما حكومة اسرائيل في القدس وحكومة (AIPAC) في واشنطن . وبطبيعة الحال تتوقف أوجه المقارنة هنا لأنه في الوقت الذي تتمتع فيه اسرائيل بنفوذ قوي في معادلة العلاقات الدولية ، فإن الفلسطينيون ليس لهم أي نفوذ على الإطلاق باستثناء الأماكن المقدسة المسيحية التي لم يعد لها نفس الوزن في معادلة العلاقات الدولية كما كانت فيما مضى. فبدون حقن اقتصادية في الوريد لمساندة الأراضي المحتلة من الخارج ، لا يمكن للفلسطينيين أن يحيوا معتمدين على أنفسهم خاصة وأن حنفية الأوكسيجين الذي يتنفسونه في يد اسرائيل.

قبل الكشف عن مفاوضات السلام السرية التي كانت جارية في أوسلو عام ١٩٩٣ وما تبعها من اتفاقيات ، ظهر سيل من التقارير الصحفية حول وجود دورات لتدريب قوة شرطة وأمن فلسطينية في مصر والأردن . قد يخال للمرء أنه بعد عقود من الزمن تخللتها ظروف احتلال البلاد واستحلال الممتلكات والعنف ، سوف يجد الفلسطينيون أمامهم باب الأمل وقد انفتح نحو مستقبل أفضل ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام المزيد من الشرطة . فبدلا من إعداد أطباء وممرضات ومدرسين ومزارعين وأخصائيو الري والإقتصاد الزراعي وفرص العمل ، وجد الفلسطينيون أن زعماءهم بضغط مباشر وغير مباشر من اسرائيل والولايات المتحدة بالتعاون مع مصر والأردن يمطرونهم بالمزيد من البوليس والجواسيس وكأنهم مجرمين لا أمل في إصلاحهم !

وها نحن نرى اليوم ومنذ عام ٢٠١٢ أنه قد فرضت على الفلسطينيين في الضفة الغربية قوة أمن دولية أخرى مكونة من رجال شرطة وعسكريين . وتقوم تلك القوة بتدريب الشرطة الفلسطينية وأفراد المخابرات على أفضل الطرق الحديثة للتحكم بالشعب الفلسطيني . هذا إلى جانب مراقبة قوات الأمن الفلسطينية ذاتها . ويحاكي ذلك ما قام به النظام النازي في ألمانيا أبان الحرب العالمية الثانية من تشكيل قوات "الكابو" اليهودية لضبط المساجين في معسكرات الإعتقال ! ومع معرفتنا بما يحصل لازلنا نتعجب عندما تثور الشعوب ويقوم بعض المواطنين بأعمال عنف نطلق عليها تسمية "تشاطات إرهابية" . فهل تعلمنا شيئا من التاريخ ؟

عانى الشعب الفلسطيني منذ ١٩١٦ من جبروت بريطانيا وجيشها وشرطتها ومخابراتها ، ثم تبعهم المصريين والأردنيين بحكمهم العسكري ، إلى أن طبق عليهم الإسرائيليين أساليب الخنق في كل من غزة والضفة الغربية ، وأخيرا جائتهم السلطة الفلسطينية وحماس كل في دُوُقِيّتِهَا وطبقت عليهم ما تعلمته من أساليب القمع من كل من سبقهم وذكر أعلاه . هذا دون أن نغفل مختلف أنواع الإجراءات الإستثنائية التي رزح تحتها سكان المخيمات المبعثرة في كل من لبنان وسوريا والعراق والأردن وغزة والضفة الغربية ، سواء من قبل أجهزة الأمن في الدول المضيفة أو نتيجة المنازعات بين مختلف الفصائل الفلسطينية التي تتنافس للسيطرة على هؤلاء الغلابة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن كافة شؤون اللاجئين الفلسطينيين في معظم الدول العربية منذ ١٩٤٨ تدار من قبل مختلف أجهزة المخابرات في الدول المضيفة ! هذا إلى جانب التعقيدات التي لا يمكن تصورها التي يعاني منها اللاجئين الفلسطينيين إلى يومنا هذا كلما أرادوا السفر ليس إلى منتجع أحلام ، بل لمجرد زيارة أقارب وأفراد من الأسرة أو بحثا عن علاج طبي في إحدى الدول العربية المجاورة على سبيل المثال .

والآن ماذا يجنون بعد كل ذلك العذاب ؟ معتقل واسع شاسع في غزة والضفة الغربية مع حرس منهم وفيهم كما كان يفعله النازيين في معتقلات الحشد ، هذا إلى جانب شرطة الحدود الإسرائيلية وجيش الدفاع الإسرائيلي ومختلف أجهزة المخابرات و ما تنجح في تجنيده من عملاء بينهم . كما استُخْدِموا كأهداف حية كي يتمرن جنود جيش الدفاع الإسرائيلي على التدرب على الرماية ، وساحة تجارب لكل من يتم ابتكاره في فن صناعة أسلحة الهلاك والدمار الشامل التي تخرجها المصانع الإسرائيلية وغيرها من البلدان التي لا تجرؤ أن تجربها على أهداف حيّة في بلادها .

وكل ذلك لأن الفلسطينيون صامدون ويرفضون أن يُخلوا بلادهم كي تستولي اسرائيل على أرضهم ، وهذا هو هدفهم منذ اليوم الأول للحركة الصهيونية . لا شيء آخر !

ماذا يريد الفلسطينيون ؟

كل ما يطلبه شعب فلسطين على ضوء الوضع الحالي هو استعادة احترامه وعزته بين الناس ، واعتماده على نفسه عبر وحدة وطنية ، وقيامه بإدارة شؤون نفسه بنفسه بفضل قيادة عصرية (مودرن) تكون كفوءة و غير مهملة ومؤهلة ومسؤولة ، تمثله تمثيلا لائقا هو كل ما يطلبه على ضوء الواقع الحالي . أما استمرارهم على الإعتماد على الصدقات الدولية التي يختفي معظمها دون معرفة مآله ، فلا يقل عن كونه كارثة وإهانة وطنية غير مقبولة . هذا ما لا يريده الفلسطينيون .

لم يبقى للفلسطينين اليوم شيء يقدمونه لشعبهم أو للعالم . فالموقع الاستراتيجي الذي كانت فلسطين تحتله في شرق البحر الأبيض المتوسط وعلى البحر الأحمر اختفى منذ سنوات طويلة ، وأشجار الزيتون التي كانت تؤمن انتاج زراعي صناعي يوفر ثروة اقتصادية معقولة اقتلعها الإسرائيليون بحجة أن "المخربين يختبئون خلفها". والذي رأى شجرة زيتون في حياته يعرف أنه لا مكان لقطة أن تختبىء خلف هذه الشجرة الصغيرة . أما الأرض المقدسة فقد أصبحت هيكلا عما كانت عليه ، ثم أن عدد المسيحيين في أرض المسيح يقل باستمرار ولا يمكن لوم اسرائيل فقط على ذلك . فخلافا للوضع الإقتصادي والإجتماعي المتأزم في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة ، وكذلك التصرفات غير المقبولة من جانب بعض المجموعات الإسلامية المتطرفة ، فإن الدول العظمى الأوروبية والأمريكية لا تفنى في اتباع سياسة خبيثة تبدو وكأنها موضوعة "لإنقاذ" مسيحيي الشرق عن طريق تسهيل هجرتهم من الأرض المقدسة . ويجب ألا ننسى أن تأثير تلك السياسة التي يبدو وكأنها تطبق بنية سليمة ، إنما تحظى بتشجيع من بعض الجهات وليست فقط اليهودية بل وبين الإنجيليين الأمريكيين و غيرهم الذين يعتبرون أن تلك وسيلة فعالة لإفراغ الأرض المقدسة وغيرها من البلدان المحيطة بها في المنطقة من الجاليات المسيحية على اعتبارها مكونة أساسا في غالبيتها من أرثوذوكس وكاثوليك أي عربا غير معنيين بالتبشير الإنجيلي عن طريق برامج هجرة نشطة ومعززة.

فبالنسبة للإنجيليين تعتبر هجرة كلا من المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين وسيلة فعالة لإعادة الأرض المقدسة دون سكانها إلى الشعب اليهودي كي يتم التعجيل بعودة السيد المسيح على الأرض حسبما يعتقدون . أما بالنسبة لإسرائيل فانها تخفف من الضغط الذي تلقاه من مختلف الدول المسيحية و الكنائس مثل الفاتيكان وغيره من السلطات الروحية المسيحية . ويعتبر ترحيل المسيحيين خطرا داهما لفلسطين التي أضحت بدون أي أهمية تذكر حيث أنه يؤدي إلى إفراغ البلاد من محتواها التاريخي . أما فيما يتعلق بالمتطرفين الإسلاميين الذين عميت بصيرتهم فقد يعتقدوا أن ذلك الوضع لصالحهم أو لصالح فلسطين غير أنها كارثة هائلة لمستقبل الأرض المقدسة بل وللتراث والحضارة العربية والإسلامية وخطوة هامة نحو اختفاء ما تبقى من أرض فلسطين .

أما القيادات الفلسطينية ، فإما أنها تدعو السماء كي ترسل لها المن والسلوى ، أو أنها لاهية تلعب لعبة الرؤساء والوزراء بينها البعض وعسكر وحرامية مع المواطنين . أما الأكفاء بين الفلسطينيين الذين كان بالإمكان الإستعانة بهم فتجدهم مبعثرين في مختلف أنحاء العالم . ليس هذا فحسب ، بل أنه غير مرغوب فيهم من قبل المحتلين (وهذا غير مستغرب!) ، ولا حتى من قبل شعبهم الذي يعتقد أنهم لا يدركون الواقع الذي يعيشه أهل فلسطين ، وهو رد الفعل الطبيعي الذي يصدر عن القابعين في السجون لمدة طويلة .

والواقع أن السلطة الفلسطينية هي في الحقيقة " سوبر بلدية " . ولو ركز المسؤولون على الواجبات والمتطلبات الخاصة بالبلدية بدلا من الإدعاء والفشخرة لاستفاد المواطن الفلسطيني بصورة أفضل . فقائمة الإحتياجات الماسة طويلة ، وتنفيذها هو ما يجعل المواطنين يشعرون بأن "حكومتهم" مهتمة بشؤونهم .

في الوقت الذي توعد فيه الجنرال الإسرائيلي رافائيل إيتان الفلسطينيين بأنه "سيضعهم في زجاجة كالصراصير ويحكم السدادة عليهم" بينما كان يصف خطته بالنسبة لمستقبلهم ، حافظ هؤلاء على روح القتال والجراءة بكل شجاعة ضد المحتل ، وإن كان مصير ذلك الموقف وخيم العواقب في كثير من الأحيان لأنه إذا لم تكن الروح القتالية والمقاومة تشكل جزءا من مخطط استراتيجي شامل ومتكامل ذا أهداف محددة فإن نتيجتها قد تؤذي أكثر مما قد تفيد .

لاوزن للفلسطينيين اليوم في السياسة الدولية ، وإن كانوا يُذْكَرون فلكون قضيتهم مرتبطة باسرائيل . فالسياسة عبارة عن سوق تجاري ، من أراد أن يدخله لابد أن يكون بائعا أو شاريا . في سوق السياسة تشكل اسرائيل بائعا وشاريا مهما . فهي تبيع أسلحة ، وخبرات في مجال التجسس ، والمعدات الأمنية ، وأساليب الإرهاب ومكافحته . كما أن اسرائيل مساهم كبير في العلوم والتكنولوجيا ، وعلوم البحث والتطوير ، والزراعة ، والطب ، والشؤون المصرفية ، إلخ . أكانت مساهمتها جيدة أو سيئة ، يبقى الواقع أن اسرائيل تحتل مكانا هاما .

لكي يدخل الفلسطينيون السوق يتعين عليهم أن تكون عندهم ولو سلعة واحدة قابلة للتسويق بذكاء . وليس من الضروري أن تكون تلك السلعة ذات قيمة تجارية . فقد تكون فنية أو فكرية أو غيره طالما أنها تبرز الفلسطينيين في العالم . صحيح أن كل العقبات مرصوصة ضدهم من الذين كان من المفروض أن يكونوا حلفائهم وبالطبع من قبل عدوهم . واليوم وهم رازحين أسرى و قبضة اسرائيل على رقابهم ، فليس بمقدورهم أن يستخدموا حتى مياههم ليشربوا ويسقوا زرعهم وباقي احتياجاتهم بدون إذن من اسرائيل . وتحت تلك الظروف المتجبرة لا يمكن أن ينتج عنهم أي شيء ولا حتى فكريا .

غير أنه لو تركت للفلسطينيين فرصة تنظيم حياتهم الداخلية ووضع أولوياتهم حيث يجب أن تكون مثلهم مثل باقي الأمم ، فإنهم قادرون على إثبات جدارتهم وأخذ مكانهم في سوق السياسة وجلب انتباه العالم وتأمين حريتهم واستقلالهم . وفي نهاية المطاف لا يطلب الفلسطينيون من العالم أي شيء سوى الإنعتاق وتركهم وشأنهم !

الإفلات من القيود الفكرية

حاول العديد من دول العالم القيام بعمل ما حيال المسئلة الفلسطينية ولكن لم ينجح أيا منهم بصورة محققة . وإذا أخذنا بعين الإعتبار عالمنا كما هو عليه اليوم ، إذا لم تقم دولة عظمى تنصت إليها اسرائيل فلن يكون هناك مخرجا من الأزمة . والدولة الوحيدة التي قد يمكنها القيام بهذا الدور اليوم هي الولايات المتحدة . إلا أن الولايات المتحدة مشلولة أولا بسبب تراكم مشاكلها من جهة ، ثم هناك تبعية النظام السياسي الأمريكي المستمرة للمتطرفين من يهود أمريكا وحلفاؤهم الأصوليين المسيحيين الإنجيليين ، هذا إلى جانب استخدام التهديد النووي المموه باستخدام السلاح النووي من قبل اسرائيل .[33]

علماً بأن الوضع الحالي بين الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني وضمن كافة الدول العربية في المنطقة قد تغير تغييرا ملموسا منذ ١٩٤٨ ، فالقيادات الإسرائيلية والفلسطينية الحالية إما أنها غيرقادرة على تحقيق السلام أو أنها غير مؤهلة لذلك ، وإما لأن السلام غير مدرج في جدول أعمالها . وأي حلول مجدية يمكن طرحها أضحت تتطلب مستوى تفكير وأساليب مبتكرة ليست متوفرة لدى المسؤولين والمتزعمين الحاليين في جميع تلك البلدان بما فيهم المسؤولين الإسرائيليين والفلسطينيين ، وجلهم غير مؤهل ، ليس فقط للتفكير على هذا المستوى ، بل وحتى مجرد أن يحلموا بتلك الحلول .

فرغم القضايا المعقدة يبقى المطروح ثابتاً ، وهو أنه على الإسرائيليين أن يتركوا الفلسطينيين و شأنهم ، وعلى الفلسطينيين أن يدركوا أنه لا يمكن إعادة خلط الأوراق كي يسترجعوا ما فقدوه بسبب ما أوصلتهم إليه قياداتهم الوطنية والعربية العديمة الكفائة في الماضي والتي تستمر في نفس الطريق في الوقت الحاضر .ولا مفر من أن الإنشقاق الداخلي واستمرار الصراع بين القيادات الفلسطينية المتتالية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى سوف تؤدي إلى إزالة ما تبقى من فلسطين من الوجود قبل أن تقوم اسرائيل بذلك .

فقبل أن تلفظ كلمة "سلام" يجب أن تكون هناك على الأقل رغبة صادقة وأكيدة لدى الطرفان نحو أخذ الآخر بعين الإعتبار إلى أن يتمكن كل منهما أن يعيش حياة طبيعية نوعاً ما . من الضروري أن يشعر كل من الفلسطينيين وجيرانهم العرب بالسكينة وأن يستردا إنسانيتهما بعد ما يقارب ثمانون عاما عوملوا خلالها كالحيوانات . فهم بحاجة إلى مدارس وفرص عمل وعزة نفس وراحة نفسية . يجب أيضا أن تكون هنالك فترة هدنة واستراحة في بادئ الأمر ليتمكن الفلسطينيون خلالها من التنفس والعيش كبشر . وسوف تسمح تلك الفترة للإسرائيليين أيضا بالعيش بأمان دون أن يخوضوا حروبا جيل بعد جيل .

وإذا كنا نبحث عن سلام يجب أن يكون هذا السلام سلاما بين الجماهير وليس مجرد سلام بين موظفين وجنرالات وسياسيين "منتخبين" لا يهمهم سوى أن يلعبوا لعبتهم للإستمتاع أو للإستفادة . فبالنسبة لهم تلك هي لعبة الكبار التي تعني أنه لكي يكون هناك رابح يجب أن يكون هناك خاسر . أما الملايين الذين سوف يربحون أو يخسرون فيعاملوا بكبرياء وكأنهم أطفالا لا يعرفون ماذا يريدون . بوجود "مسؤولين" و رجال دين على تلك الشاكلة فرضوا أنفسهم ومصالحهم أو جهلهم على الناس فإنه لا أمل للبشرية في هذه الدنيا .

وللوصول إلى المبتغى يتطلب الأمر قيادات مؤهلة قادرة على أن تفكر بأسلوب يقرب ذات البين بدلا من اسلوب المواجهة العدائية غير المجدية . غير أنه من دواعي الأسف أن معظم القيادات العربية والإسرائيلية لا تمثل سوى مصالح شرائم من الناس ولا يهمها سوى مصالحها الشخصية المالية أو العقائدية وبالأحرى قيادات لا تتعرف محركات البحث "search engines" لديها على عبارات مثل الذمة ، أو المشاركة ، أو الإنسانية أو العدل . لقد سقط حائط برلين وحان وقت سقوط حوائط أخرى مثل حائط الجهل وحائط الجشع ، وحائط التقهقر، وحائط ضيق الأفق ، وحائط التكبر، وحائط الإعتداد بالنفس وحائط الأساطير والقصص والحواديت التي تنسب إلى الخالق الواحد الأحد . كما يعرفون حق المعرفة أن الديانات التي ابتكرها البشر لا تحل لا مشاكل البلديات ولا متطلبات الحياة اليومية .

إذا أخذنا بعين الإعتبارالوضع الحالي على الأرض بصورة واقعية ، فالخطوة الأولى يجب ألا تبدأ كما يحدث دائما بالتفاوض حول موضوع متشابك ومعقد يضمن استحالة التقدم في المحادثات ، أي مسألة تقسيم الأرض وما عليها بين اسرائيل والفلسطينيين ، بل ولا حتى طرح الموضوع والتكلم فيه . الوقت لا يزال مبكرا لمثل هذا الحديث . ثم أن نتوقع أن الغريمان المختلفا الثقافة والمنشأ في وضع يمكنهما من التحدث أو الإستماع الواحد إلى الآخر منطقيا في تلك الظروف إنما لا يزيد ذلك عن هراء .

مراحل السلام السبع

خلال المباحثات السرية التي جرت في مدينة أوسلو بالنرويج خلال التسعينات أثبت كلا من الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي أنه باستطاعتهما أن يتعاملا كل مع الآخر مباشرة ودون تعقيدات [34] . ولايزال هناك أشخاصا لدى كل جانب يتحلون بنفس تلك المزايا ويمكنهم لعب هذا الدور إذا أتيحت لهم الفرصة . هذا وقد يتطلب الأمر استشارة "محام" من وقت لآخر . وعند كتابة تلك السطور الطرف الوحيد الذي يمكن لإسرائيل أن تثق به إلى حد ما رغم ضعف موقفه تجاه اسرائيل فهو الولايات المتحدة. وحيث أن بريطانيا هي التي خلقت هذا الوضع في الأرض المقدسة من أوله ، فهي الأكثر دراية به كي توفر عند الضرورة ما قد يحتاجه الفلسطينيين من مشورة . وقد لعبت تلك القوتان ، أي الولايات المتحدة وبريطانيا ، أكبر دور في تلك القضية فضلا عن تمتعهما باحترام الطرفان الإسرائيلي والفلسطيني وانتباههما . هذا ويجب الحرص بصورة خاصة على أن لا يكون ممثلي الأمريكان والإنجليز هم نفس الأشخاص الذين لعبوا هذا الدور إلى الآن وكأن هدفهم كان الحؤول دون أي اتفاق بين طرفي النزاع سواء نتيجة سوء نية متعمدة أو نتيجة قلة درايتهما بثقافة وترات كلا من الإسرائيليين والفلسطينيين .

ولعل أصعب نقطة سوف تكون مسألة اختيار ممثلي الإسرائيليين والفلسطينيين الذين سيكونوا شركاء تلك البادرة . علما بأن المفاوضات وعقد الإتفاقيات يجب أن يتم بين أناس غير متحيزين سياسيا قدر الإمكان . يجب اختيار هؤلاء الممثلين المفوضين بالصلاحيات اللازمة من بين أكثر الأشخاص احتراما بين مواطنيهم وأن يكونوا أصحاب كفاءة وكل منهم عارف بشئوون شعبه وشعب نظيره كما يجب أن يكونوا مؤمنين بضرورة تسوية الخلاف بين الطرفين وقادرين على التوصل إلى تسوية ملائمة .

أما الحكومات العربية غير القادرة على حل مشاكلها الداخلية التي خلقتها بنفسها في الأساس ، فيقتصر دورها في البداية على تقديم مشورتها متى طلب منها ذلك ، غير أنها لا تشارك لا في المفاوضات ولا في تطبيقها اللهم إذا كان الأمر يتناول مسائل ثنائية متعلقة بالحدود . فمجرد إشراك الدول العربية في المفاوضات سوف يؤدي ذلك إلى الغوص في بحر لا قرار له !

تشتمل عملية التسوية الملائمة للجانبان الإسرائيلي والفلسطيني على سبع خطوات . بعض تلك الخطوات يجب تنفيذها الواحدة بعد الأخرى بهذا الترتيب ، والبعض الآخر يمكن الشروع فيها بكيفية متزامنة حسب الحاجة والإمكانية .

سوف يسمح هذا الأسلوب التدريجي نحو إيجاد تسوية ملائمة للطرفين ، سوف يسمح للإسرائيليين بأن يخففوا من حدة مخاوفهم من حيث التهديد لأمنهم ، كما أنه سيسمح للفلسطينيين بأن يعيشوا دون أن ينظروا خلفهم طيلة ساعات الليل والنهار خوفا من اعتداء اسرائيلي من نوع أو آخر . كما أنه سوف يوفر للطرفان فصلا فعليا بينهما مع إعطائهما مجالا للتنفس لفترة من الزمن قد تطول أو تقصر حسب الظروف المحيطة بهما . أما بالنسبة لمرحلة السلام ، أي عندما يشرع الطرفان في المباحثات الثنائية المباشرة لإقرار السلام بينهما ، فقد تتطلب عدة سنوات ، وربما جيل أو جيلين قبل أن تذكر كلمة "سلام" .

الخطوة الأولى: وقف الأعمال العدائية

يجب أن تكون الخطوة الأولى في طريق التسوية الملائمة للطرفين خطوة إيجابية فعلية ظاهرة ، وذات دلالة يقوم بها كل جانب تجاه الجانب الآخر بإعلان وقف الأعمال العدائية بينهما ، على أن يشمل ذلك وقف عمليات مصادرة الأراضي وهدم المنازل الفلسطينية فضلا عن الإمساك عن إطلاق أي قذائف باتجاه اسرائيل من الجانب الفلسطيني.

الخطوة الثانية: أمن الحدود

يصاحب الخطوة الثانية انتشار قوة عسكرية مشتركة كبيرة وذات تسليح ثقيل يتناسب مع مهمتها ، تمثل أطرافا أخرى مقبولة من كل من الإسرائيليين والفلسطينيين وليس قوة حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة . وتكون مهمة تلك القوة العسكرية إحكام الحدود بين اسرائيل والأراضي الفلسطينية والدول العربية المجاورة ، أي ضمان تطبيق فصل تام بين اسرائيل وكافة الأراضي الفلسطينية والدول المجاورة .

والمقترح هنا أن يتم تشكيل قوتان عسكريتان واحدة مغربية والأخرى ألمانية للقيام بتلك المهمة . تتمركز القوات المغربية على الحدود المشتركة بين الأراضي الفلسطينية و الدول العربية المجاورة (أي الأردن وسوريا ولبنان ومصر) وتعمل على وقف أي تسلل أو إطلاق صواريخ عبر الحدود من الأراضي الفلسطينية أو العربية نحو اسرائيل .

لماذا القوات المغربية؟ القوات المغربية مشهورة بالضبط والربط ، كما أنها اكتسبت خبرة طويلة بمنع التسلل عبر الحدود خلال الحرب مع البوليساريو التي استمرت سنوات طوال . كما يعتبر المغاربة بشكل عام بأنهم من خارج المنطقة في الوقت الذي يتكلمون فيه اللغة العربية ، أي أنهم قريبين نسبيا من الفلسطينيين . سوف يتقبل الفلسطينيون المغاربة بينما لن يثير الإسرائيليون مخاوف أو اعتراضات كثيرة عليهم نظرا لوجود جالية يهودية ذات نفوذ في المغرب وجالية يهودية كبيرة من أصل مغربي في اسرائيل . هذا بالطبع إلى جانب كون البلدان قد احتفظا بعلاقات معقولة رغم النزاع الفلسطيني – الإسرائيلي .

تكلف القوات الألمانية بحماية الحدود الفلسطينية الإسرائيلية المشتركة من أي اعتداء من أحدهم على الآخر .ويشمل ذلك المتطرفين اليهود المسلحين المقيمين في المستوطنات الإسرائيلية . علما بأن الدور المقترح أن يلعبه الألمان هو دور جديد لم يسبق لهم أن لعبوه من قبل . حيث أنه لم يكن لهم أي تدخل عسكري ضد الفلسطينين عبر التاريخ . هذا في الوقت الذي تقيم فيه ألمانيا علاقات متميزة مع اسرائيل خاصة من الناحية العسكرية ، فضلا عن وجود جالية يهودية من أصل ألماني في إسرائيل وجالية يهودية ذات نفوذ متزايد في ألمانيا .

الخطوة الثالثة: تغيير القيادات

يتعين حمل الفلسطينيين على تغيير قياداتهم في الضفة الغربية وقطاع غزة استعدادا لوضعهما تحت إدارة مشتركة . كما يتعين على الفلسطينيين أن يقبلوا تطعيم إداراتهم لعدد من السنين بخبراء استشاريين يتم اختيارهم من بين الفلسطينيين المقيمين في الخارج تكون مهمتهم توفيق نظامي الحكم والإدارة بين الضفة والقطاع ووضع بنية تحتية عصرية لتسيير شؤونهما الحياتية والإقتصادية بشكل اعتيادي يتماشى مع باقي الدول المتقدمة .

الخطوة الرابعة: الجدار الفاصل وحركة السكان

يتم الإحتفاظ بالجدار الفاصل الذي بنته اسرائيل بينها وبين الضفة الغربية خلال المراحل المبكرة من التسوية الأمر الذي قد يستغرق عدة سنوات، غير أنه يتم إزاحة الجدار تدريجيا نحو الأراضي الإسرائيلية حيثما يقتطع الأراضي الزراعية التابعة للقرى الفلسطينية على طول الخط الأخضر بغية إعادة الإستمرارية الجغرافية إلى الضفة الغربية وإعادة الموارد الإقتصادية الضرورية لحياة سكانها .

بعد إتمام ذلك يجري فتح الحدود بين الإردن والضفة الغربية كي يتمكن الفلسطينيون من السفر والتبادل التجاري وفق النظم والقوانين المعمول بها حاليا بين مختلف الدول . كما يتم فتح الحدود بين غزة ومصر وفق النظم والقوانين ذاتها إلى أن يتم إعادة ربط القطاع بالضفة الغربية كما هو مذكور في الخطوة الخامسة فيما يلي.

لن يسمح للفلسطينيين خلال تلك المرحلة من عبور الحدود إلى داخل اسرائيل للعمل ، حيث أن فرص العمل سوف تصبح متوفرة في أراضيهم وفي الحقول المتصلة بقراهم الأصلية أو العمل في بعض الصناعات الخفيفة ، كما سيصبح بإمكانهم بعد فتح الحدود مع مصر والأردن أن يمروا عبر هذين البلدين للعمل في أي بلد آخر قد يكون بحاجة إلى يد عاملة كما هو الحال بالنسبة لليد العاملة المهاجرة الأخرى في العالم . هذا فضلا على أنه سيكون لهم وطن يعودون إليه ، أي إلى غزة والضفة الغربية ، في أي وقت يشاءون .

ومن المهم أن نذكر بأن فتح الحدود هو في مصلحة شعب اسرائيل هو الآخر. فخفض حدة الضغوط اللاإنسانية المفروضة على الفلسطينين والمشابهة لما كان يجري في المعتقلات السوفيتية ستزيل إلى حد كبير المسببات التي تدفع الفلسطينيين إلى إطلاق صواريخ باتجاه المستوطنات الإسرائيلية خاصة لكونهم سيكونوا حريصين على الحفاظ على مصدر رزقهم خارج الأراضي الفلسطينية .

الخطوة الخامسة: إعادة ربط الضفة الغربية وقطاع غزة بباقي المنطقة

يبدأ في تلك الخطوة بناء نفق تحت الأرض لمد طريق بري وخط سكة حديد يربط الضفة الغربية وقطاع غزة مثل الخط الواصل تحت بحر المانش بين القارة الأوروبية والجزرالبريطانية ، أو خط المترو الجديد الذي يربط بين ضفتي بحر مرمرة في مدينة اسطنبول عبر نفق تحت البحر، وذلك لربط جزئي فلسطين بعضهما ببعض دون عبور الأراضي الإسرائيلية . وسوف يؤمن هذا النفق للضفة الغربية منفذا على البحر الأبيض المتوسط والحدود مع مصر ، كما سيسمح بربط غزة بباقي العالم العربي شرق نهر الأردن . وفضلا عن ذلك سوف يعطي الممر للأردن مخرجا على البحر الأبيض المتوسط . ومحصلة المشروع أنه سوف يعيد إعادة ربط بلاد الشام بمصر و أفريقيا لأول مرة منذ أن قطعت الطريق عبر فلسطين إثر تأسيس دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ . أما الإنعكاسات الإقتصادية الإيجابية التي ستترتب عن هذا المشروع على اقتصاد فلسطين والدول المجاورة بما فيها اسرائيل فيما بعد فستكون هائلة .

الخطوة السادسة: مستقبل اللاجئين الفلسطينيين

تمنح الجنسية الفلسطينية أوتوماتيكيا لكافة الفلسطينيين حيثما كانوا بما فيهم اللاجئين . ويحق لهم أن يقيموا على أرض فلسطين حسب رغبتهم . كما يمكنهم أن يستحصلوا على إقامات دائمة كأجانب في البلدان التي يقيمون فيها كلاجئين بموافقة ووفق قوانين تلك البلدان . ويحق لأي من تلك الدول أن تُجنّس أي عدد من اللاجئين حسب رغبتها . أما مسألة تعويض لاجئي ١٩٤٨ فيتم النظر فيها في مراحل مقبلة .

الخطوة السابعة: مستقبل السكان الفلسطينيون واليهود

يبدأ إجلاء المستوطنين اليهود المقيمين في الضفة الغربية تدريجيا إلى اسرائيل بدءا بأولئك المقيمين بين السكان الفلسطينيين كأولئك المقيمين في المدن مثل مدينة الخليل على سبيل المثال ، و يليهم أولئك المقيمين في المناطق النائية . إذا شاء بعض المستوطنين اليهود أن يسكنوا بين الفلسطينيين تحت السيادة الفلسطينية ، سواء شاؤوا أن يحملوا الجنسية الفلسطينية أم مجرد تصريح بالإقامة الدائمة ، فلهم مطلق الحرية في ذلك طالما أنهم سيقيمون وفق النظم والقوانين المعمول بها في فلسطين . أي مثلهم مثل الفلسطينيين المقيمين في اسرائيل ويحملون جنسيتها . أما إذا اختاروا أن يقيموا كأجانب فسوف يحملون تصاريح إقامة قابلة للتجديد .

أما الفلسطينيون الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية فسيحق لهم أيضا أن يختاروا بين الإستمرار في الإقامة في اسرائيل كمواطني تلك الدولة أو ينتقلوا إلى المناطق التي ستصبح فلسطين . وينطبق ذلك أيضا على سكان مدينة القدس . ويمكن لهؤلاء الفلسطينيون أن يحتفظوا بجنسيتهم الإسرائيلية إذا شاؤوا ، وأن يحصلوا أيضا على الجنسية الفلسطينية مثلهم مثل اليهود الإسرائيليين الذي يحملون جنسيات دول أخرى إلى جانب الجنسية الإسرائيلية ، مثلما هو الحال بالنسبة للإسرائيليين اليهود الذين يحملون الجنسية المغربية إلى جانب جنسيتهم الإسرائيلية على سبيل المثال .

بالنسبة لمستقبل مدينة القدس فلن يتغيرعما هو عليه الآن ، أو على الأقل إلى أن يتم التوصل إلى سلام فعلي بين الفلسطينيين والإسرائيليين . تمسك اسرائيل بالقدس اليوم بإحكام . وإذا كان هناك من يعتقد أنها سوف تتنازل ولو عن جانب منها عبر مفاوضات أو حتى تحت التهديد إنما يفضح سذاجته . فإسرائيل سوف تحتفظ بالقدس والفلسطينيون سوف يحتفظون بمجمل الضفة الغربية وقطاع غزة . وسيتمكن الفلسطينيون المسلمين والمسيحيين من زيارة أماكنهم المقدسة في القدس كما سيتمكن اليهود من زيارة أماكنهم المقدسة في الخليل وغيرها بنفس الطريقة التي يزور فيها الحجاج المسلمون الأماكن المقدسة في المملكة العربية السعودية . حيث يتقدمون بطلب للحصول على تأشيرة إذا اقتضى الأمر ، ثم يؤدون الزيارة أو العمرة أو الحج ، وربما يقومون بجولة سياحية في ذات الوقت ، ومن المؤكد قيامهم بزيارة للأسواق ، ثم يعودوا من أين أتوا.

ما هي فرص نجاح الحل المقترح ؟

من المتوقع بدون أدنى شك أن هناك من سيبدي شكوكه فورا لدى الجانبان حول جدوى ذلك الأسلوب ، إلا أن الشكاكين موجودين في كل مكان وزمان ، ويجب ألا نسمح لهم بإفساد المحاولة . فلدى كل من الفلسطينيين والإسرائيليين ما هو جدير بالمشاركة في المستقبل ، إلا أن جو الصدام بينهما لا يمكنهما سوى من مشاركة أسوأ ما يمكن للبشر أن يتفننوا فيه .

فها هو العالم يبذل المستحيل للتوفيق بين مواطن الحيوانات والبشر والحفاظ على البيئة ، ولكن البشر فشلوا في التفاهم مع بعضهم البعض، بل أصبحوا يشكلون تهديداً بيئيا لبعضهم البعض . ولعل النجاح في إيجاد حل لتلك القضية المعقدة ، لعله يصبح مثالا يحتذى به لإيجاد حلول لمشاكل أخرى تواجه البشرية .

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أن الفلسطينين ليسوا مجرد لاجئين ، واليهود ليسوا مجرد ناجين من المحرقة . لأنه لو أفاق صاحب بصيرة يوما ما واكتشف أن "ما هو صالح للفلسطينيين صالح لليهود أيضا" ، لربما تغيرت النظرة كلها من أساسها . ففي واقع الأمر ، إذا كان الجو العام في المنطقة ملائما لأمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونضيف بأن أفضل جيران للإسرائيلين قد يكونوا فلسطينيين ، وأن من بين اليهود من هو أفضل حليف للفلسطينيين .

مواقف ومبادرات

طُلب من محمد علي الطاهر في الستينات أن يكتب نبذة عن حياته وبعض المداخلات التي يفتخر بها ، وننشر فيما يلي موجزا منها :

"تميزت حياتي بالشقاء وكلها بؤس ومتاعب وحرمان وفقر وتشريد حتى الآن وبعد أن تجاوزت الخامسة والستين . كان جهاد الصحف التي أصدرتها يتناول قضايا بر الشام كله ومصر وبلاد العرب جميعا وديار الإسلام قاطبة . ومع ذلك فإني قبل إصدار جريدة "الشورى" وبعدها كتبت خلال الخمسون سنة الماضية نحو ألف مقالة دفاعا عن امتي العربية في شتى مواطنها وأقطارها وخصوصا في الدفاع عن موطني الأول فلسطين ، وقد تم نشر تلك المقالات في الصحف والمجلات الصادرة في كل من البلاد العربية وصحف المهجر الأمريكي . أما الأعمال التي أفتخر بها فمنها :

١ – في سنة ١٩٢١ نجحت في إنقاذ الزعيم السوداني محمد الحسن كامل من سجن الخرطوم الذي ألقي فيه من قبل الإنجليز وأعوانهم .

٢ – في عام ١٩٢٤ نجحت في تخليص الشيخ محمد نصيف عالم جدة الشهير من المنفى الذي وضعه فيه الملك حسين بن علي ببلدة العقبة .

٣ – انقاذ مجاهد فلسطين وشهيدها القائد عبد القادر الحسيني من سجن بلدة العمارة في العراق سنة ١٩٤٢ بمسعى قمت به عند الزعيم مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر وبهمة ساعده الأيمن الدكتور محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية .

٤ – المسعى لدى الملك فاروق والوسائل التي قمت بها وأدت إلى إنقاذ الأمير عبد الكريم الخطابي وآله سنة ١٩٤٧ وإفلاتهم من أسر فرنسا .

٥ – إنقاذ الزعيم اليمني أحمد محمد نعمان من بطش الإمام أحمد ملك اليمن سابقا .

٦ – تخليص المجاهد الجزائري الفضيل الورتلاني من محبسه في سفينة المنفى والتشريد بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط سنة ١٩٤٨ وإفلاته من الإعدام في اليمن .

٧ – تخليص الدكتور أمين رويحة من الإعدام في سوريا عندما كان مسجونا عام ١٩٥٠ بتهمة محاولة اغتيال رئيس أركان حرب الجيش السوري العقيد أديب الشيشكلي الذي أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية السورية .

٨ – تخليص الدكتور أمين رويحة مرة أخرى لدى زيارتي لجدة عام ١٩٥٣ من بطش وزير الدفاع السعودي الأمير مشعل بن عبد العزيز آل سعود .

لقد عملت جهدي عندما كنت أقطن مصر على مساعدة الغرباء العرب والمسلمين ومعاضدة المجاهدين الذين كانوا يطرقونها للتعريف بقضايا بلادهم والسعي لتحرير أوطانهم من الإحتلال الأجنبي . فكنت أساعدهم كلما تيسرت لي الظروف المناسبة لإمدادهم بالعون الفعلي والمعنوي والدعائي ، ومعاداة أعوان الإستعمار أينما كانوا ، ومقاتلتهم وملاحقتهم بالفضيحة والتجريح بالقلم واللسان وباليد أحيانا .

ولم أتوانى في الأخذ بأيدي الحيرانين من أبناء الأقطار العربية والإسلامية وطلاب العلم الذين كنت أصادفهم بمصر ، فأسهل له أمورهم في دخول الجامعات والمدارس والمعاهد ، وخصوصا قبل استقلال الدول العربية وقبل قيام تمثيلها السياسي والقنصلي . كما كنت ولله الحمد أنجح في تخليص الكثيرين من المعتقلين السياسيين والمساجين المظلومين . ولذلك كنت عندما أقع أنا في المصائب والمحن أجد العون من الجميع ممن عرفت وممن لا يعرفونني" .

لعب أبو الحسن دوراً هاماً في مختلف القضايا العربية في المشرق والمغرب على السواء ، بل وأخذ مبادرات تناولت حياة غيره من المناضلين مما أثر تأثيراً فعلياً على حركة جهادهم ومسيرتها في سبيل تحرير بلادهم من الإستعمار الاجنبي . ولكي يقوم المرء بمثل تلك المبادرات ، من الطبيعي أن تكون له مواقفاً وطنية مبكرة تعكس الخلفية المبدئية التى تغذي مثل تلك المواقف . ولعل واقعة تصدّيه للحاكم العسكري البريطاني في نابلس هي أول ما يعكس بعضاً من تلك المبادئ ، وتليها واقعة المبادرة بمساندة الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة والقضية التونسية ، ثم النجاح في تهريب الأمير عبد الكريم الخطابي زعيم ثورة الريف في المغرب من بين أيدي سجّانيه الفرنسيين . حيث تلقي تلك الأمثلة الضوء على شخصيته الفريدة ، ومعرفته النافذة بطبائع الناس ، وأسلوبه العملي المباشر ، ونظرته الشمولية لقضايا أمته .

حادثة بريد نابلس

عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى عاد أبو الحسن من القاهرة الى فلسطين حيث شارك في تحرير جريدة "سورية الجنوبية" التي كانت تصدر في القدس . ولكن سلطات الاحتلال البريطاني آنذاك كانت على علم بمواقفه الوطنية منذ بداية الحرب ثم في القاهرة فيما بعد . فارتأت تلك السلطات شراء سكوته عن تأليب الرأي العام عليها عن طريق مقالاته ، خاصة بعد أن ظهرت ملامح مقاومة الشعب الفلسطيني لوعد بالفور عام ١٩١٧ ، فقامت بتعيينه عام ١٩١٨مديرا للبريد والبرق في مدينة نابلس آملة بذلك أن يكف عن نشاطه السياسي أو على الأقل أن يقلل منه . وكان أبا الحسن قد تعلّم بعضا من اللغة الانجليزية خلال وجوده في السجن فيما قبل مما سهل أمر توظيفه في البريد .

وقد وردت تلك القصة مع الزمن بأشكال مختلفة وإن كانت نتيجتها واحدة ومغزاها هو هو . فحسب القصة التي رواها لابنه ، قال محمد علي الطاهر أنه ، بعد تعيينه في وظيفته هذه ببضعة أيام أو أسابيع ، وصلت رسالة مسجلة إلى البريد باسم الحاكم العسكري البريطاني في نابلس . فطلب أبو الحسن من ساعي البريد أن يعد إشعارا بالرسالة وتسليمه لمكتب الحاكم العسكري كي يحضر للتوقيع على سجل استلام الرسائل المسجّلة وتسلم رسالته . فعاجله الساعي قائلا أن مدير البريد الأسبق كان يأخذ الرسالة والسجل بنفسه إلى دار الحكومة كلما وصل تحرير مسجل باسم الحاكم العسكري . فأجابه أبو الحسن قائلا أنه قد عُين لإدارة البريد بموجب قوانين وأنظمة حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وأن تلك القوانين والنظم لا تشير بأن يقوم مدير البريد بحمل سجل البريد المسجل الوارد لأي كان كي يوقع عليه بما في ذلك الحاكم العسكري . فأذعن الساعي وحمل الإشعار إلى دار الحكومة . وفي اليوم التالي جاء الحاكم العسكري على صهوة جواده وربطه عند باب مكتب بريد نابلس، حيث دخل ووقع السجل وتسلم رسالته ، ثم عاد إلى دار الحكومة وأصدر أمرا بطرد أبا الحسن من وظيفته كمدير للبريد والبرق !

البحث عن بورقيبة في القاهرة

لكل أمة في تاريخها رجل أو امرأة كان لهما أكبر الأثر على تغيير مُقَدّرات الأمور ومستقبل البلاد بشكل ملموس . هناك من يترك أسوأ أثر ، والأمثلة كثيرة إلى يومنا هذا ، وهناك من ينجح في إحداث تغييرات جذرية ما كانت لتقع لولا الدور المتميز الذي لعبه هذا الشخص .

فمن حسن حظ تونس التي تفخر بكونها منطلق أول مؤسس للجغرافيا الاجتماعية على الإطلاق عبد الرحمن ابن خلدون الأندلسي في القرن الرابع عشر، أن تكون أيضاً قد أنجبت الحبيب بورقيبة الذي قاد نضالها حتى الاستقلال عام ١٩٥٦ . وإذا كان بورقيبة قد نجح في انتزاع تونس من قبضة الاستعمار الفرنسي ، فإن ذلك يعود بطبيعة الحال إلى توفر عدد من العوامل المساعدة الأخرى ، إلا أن بورقيبة كان واقعيا بحيث أنه لم يحاول أن يلجأ إلى التهديد والوعيد مع فرنسا، بل كان المحرك الذي ساعد عدوه على إيجاد تلك العوامل والاقتناع بكونها في مصلحة فرنسا ، ومن ثم تنفيذ ما كان بورقيبة والشعب التونسي يرميان إليه منذ البداية بدون إراقة الكثير من الدماء، ألا وهو الاستقلال ، أو "الإنعتاق" ، كما كان يشير إليه بورقيبة أحياناً .

ولعل نجاح بورقيبة الأكثر أهمية فيما بعد كان إعادة بلورته لأولويات الشعب التونسي ووضع الأسس المتينة التي لولاها لم يكن بالإمكان إحداث أي تغيير كالتغيير الاجتماعي الجذري الذي أحدثه وكأنه يطبق ما نادى به سلفه ابن خلدون. وهو الأمر الذي دفع بتونس في وقت ما إلى مدار يفوق مدارات الشعوب والدول المجاورة نوعاً وكماً . وسبب نجاح بورقيبة فيما فشل فيه غيره هو تكريسه للتعليم على جميع مستوياته ، ووضعه الدين في مكانه الطبيعي بحيث لا يستغله البعض للتأثير على مسار حركة التحرر من الجهل والتخلف والإنعزالية ، وتحريره للمرأة من تقاليد نسبت خطئا إلى الإسلام فضلا عن الخرافات والخزعبلات الاجتماعية والتعقيدات القانونية والإدارية النابعة عن ذلك والتي لا هدف منها سوى خنق النساء وقهرهن . كما ركز على النهوض بالصناعة والزراعة ، (أو الفلاحة ، كما تسمى في تونس) . وأخيراً حرص على إعطاء تونس والتونسيين مكاناً لائقاً ومحترماً بين الأمم والشعوب المتحضرة .

بورقيبة يخطب في جماهير مدينة سوسة عام ١٩٦١

كانت لأبا الحسن والحبيب بورقيبة علاقة صداقة متميزة منذ الثلاثينات ، وإن كانت علاقة أبا الحسن بتونس تعود الى أوائل العشرينات حين كان يكتب عنها في جرائد مصر بل وصحف تونس نفسها . وقد نشرت قصة أبو الحسن وبورقيبة في عدد من الكتب والمقالات ، كما ذكرها بورقيبة عدة مرات بنفسه في خطبه العامة بعد أن تولى رئاسة الوزارة ثم رئاسة الجمهورية التونسية .

بدأت العلاقة بين الرجلين دون أن يعرفا بعضهما شخصياً بحكم أنهما يقطنان في بلدين مختلفين ، فأبو الحسن شخصية مرموقة في مصر والعالم العربي ، وبورقيبة محام غير معروف خارج نطاق تونس . فلما قاد بورقيبة عام ١٩٣٤ حركة انشقاق على الحزب الدستوري التونسي الذي كان يقوده الزعيم التاريخي عبد العزيز الثعالبي ، الذي كان الموجه الرئيسي للنضال ضد الاستعمار الفرنسي، تصدى أبو الحسن في جريدته للمنشقين وزعمائهم بضراوة خوفاً منه على مستقبل الحركة الوطنية التونسية خاصة بعد أن قام بورقيبة بتأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي .

صورة أخذت بعد حفل الغداء الذي أقامه توفيق دياب صاحب جريدة "الجهاد" في منزله بالقاهرة يوم السبت ٢١ مارس (آذار) ١٩٣١
الصف الأمامي من اليمين إلى اليسار: مكرم عبيد باشا نائب زعيم حزب الوفد - القانوني وعضو مجلس الوصاية على العرش بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢بهي الدين بركات بك - الوطني الفلسطيني الشيخ عبد القادر المظفر - الزعيم الوطني التونسي عبد العزيز الثعالبي - رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس باشا - مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني - الوطني المصري حمد الباسل باشا ، محمود فهمي النقراشي باشا - الأديب المصري وحيد بك الأيوبي
الصف الخلفي من اليمين إلى اليسار: شخص غير معروف - صاحب الدعوة توفيق دياب - المهندس محمد حامد - الدكتور منصور فهمي - أبو الحسن شخصين غير معروفين

غير أنه مع مرور الزمن لاحظ أبوالحسن أن حركة الشباب التي كان بورقيبة يقودها أبرزت نواح لم تكن معروفة وأساليب جديدة ومواجهات مع الاستعمار تنم عن ذكاء وتخطيط وليس مجرد فورة شباب وانتفاضات بلا تنسيق . كما لحظ أن "الشباب" الجدد الموجهين للحزب ، بمافيهم بورقيبة نفسه ، كانوا مزيجا من خريجي الجامعات الأوروبية والعربية ويمثلون مختلف طبقات الشعب التونسي سواء منهم من جاء من المدن أو من خارجها . عندها أدرك أبو الحسن أن هناك شيئاً جديداً يحدث في تونس ، وأن الزعامة بدأت تنتقل من أيدي رجال دين إلى أيدي شباب جدد على مستوى عال من التعليم الحديث ، فأيّد الحركة وزعمائها ومنهم بورقيبة .

أما الرجل الآخر الذي كان قد لحظ شخصية بورقيبة الفريدة ونظرته الثاقبة قبل محمد علي الطاهر فكان هوكر دوليتل **Consul Hooker A. Doolittle**، الذي كان قنصلا عاما للولايات المتحدة الأمريكية في تونس ، والذي كان له دورا فعالا في تعريف واشنطن بأهمية الدور القيادي الذي كان يلعبه بورقيبة في قلب الحركة الوطنية التونسية .

من اليمين إلى اليسار: أبو الحسن ، قنصل الولايات المتحدة السابق في تونس هوكر دوليتل
الصادق المقدم رئيس مجلس الأمة التونسي فالرئيس بورقيبة
خلال استعراض عيد النصر بتونس عام ١٩٦٦

© Eltaher.org

ميدان العتبة الخضراء بالقاهرة عام ١٩٤٥
حيث تظهر لوكاندة مصر في مؤخرة الصورة

خلال إحدى مراحل اشتباكه مع الاستعمار الفرنسي عام ١٩٤٥ ، هرب بورقيبة من تونس بزورق صيد نقله من جنوب تونس إلى الساحل الليبي القريب منه . ومن هناك عبر مئات من الكيلومترات راكباً أحياناً وراجلاً أحياناً أخرى إلى أن وصل القاهرة . لم تكن القاهرة وقتها بمثابة "أم الدنيا" بالنسبة لرجال الحركات الوطنية العربية والإسلامية الساعين إلى تعريف العالم بصراع بلادهم من أجل الاستقلال فحسب ، بل أضحت مأوى للأوروبيين الهاربين من ويلات الحرب في بلادهم . أي أن مصر وفرت الملجأ والأمن والطمئنينة لكل من المستعمِر والمستعمَر !

وقد سمع أبو الحسن بوجود بورقيبة في مصر من بعض الناس . فأخذ يبحث عنه في فنادق القاهرة واحداً بعد الآخر إلى أن وجده في "لوكاندة مصر" بميدان العتبة الخضراء في وسط القاهرة . وشاءت الصدف أنه لما وصل أبو الحسن إلى الفندق كان بورقيبة جالسا عند المدخل قرب مكتب الاستقبال ، ولم يكن أحدهما قد رأى الآخر من قبل فلم يعرفا بعضهما البعض ، إلى أن سأل أبو الحسن موظف الفندق إذا كان "الزعيم بورقيبة" مقيماً في الفندق . فنظر إليه الموظف باستخفاف لأنه لا يوجد زعماء ينزلون في فندق شديد التواضع مثل "لوكاندة مصر" . إلاّ أن بورقيبة سمع اسمه فوقف صائحاً : "أنا بورقيبة . لابد أنك محمد علي الطاهر" . فتعانق الرجلان وكان منظراً مؤثراً لهما ولموظف الفندق الذي كان أكثر منهما تعجباً لهذا اللقاء الفريد من جهة ، ولاكتشافه فجأة أن هناك "زعماء" يقيمون في فندقه من جهة أخرى !

اصطحب أبو الحسن بورقيبة من الفندق وتوجها إلى مقهى قريب ليتذاكرا في شؤونهما وشجونهما واطّلع أبو الحسن على الأوضاع في تونس وما يأمل بورقيبة من تحقيقه في مصر . كما وقف على ما هو مألوف بين المناضلين الصادقين أي قِصَرْ ذات اليد ، خاصة وأنهم يعتاشون وينفقون في سبيل قضيتهم من جيبهم واعتماداً على ما يجمعه المخلصون من تبرعات لمساندتهم في نضالهم . وأول العارفين بذلك الواقع هو أبو الحسن نفسه . وإن كان وضعه المالي أقل سوءا وقتها من وضع محدّثه ، إلاّ أنه فتح محفظة نقوده وتناول منها كل ما فيها وهو ٢١ جنيها مصريا من عملة ذلك العصر . فأعطى نصف المبلغ لبورقيبة واحتفظ بالنصف الآخر لنفسه ولأسرته . ثم أسّر لبورقيبة بأن أحداً لن يستمع إليه أو يقابله إن هو بقي في "لوكاندة مصر" المتواضعة هذه وأن عليه أن ينتقل للسكن إلى مكان آخر . وبطبيعة الحال رأى بورقيبة وجاهة هذا الاقتراح من حيث المنطق ، إلا أنه لم يجد الاقتراح معقولاً من حيث التنفيذ . غير أن أبا الحسن طلب منه إمهاله يوما أو يومين كي يتدبر الأمر .

اتصل أبو الحسن بعدها فوراً بصديقه اللواء صالح حرب باشا ، وكان صالح باشا في وقت ما وزيرا للحربية في مصر قبل تقاعده ، ثم ترأس جمعية الشبّان المسلمين (وهي غير جماعة الإخوان المسلمون) ، وكان لها نادياً رياضياً في شارع رمسيس بالقاهرة . وحيث أن صالح باشا من صعيد مصر ، فلم يكن له بيت في القاهرة ، إلا أنه قد خُصصت له غرفة في مبنى النادي كان ينام فيها كلما تواجد في القاهرة . قابل أبو الحسن إذاً صالح باشا وقص عليه قصة بورقيبة، ثم أقنعه بأن يتنازل عن غرفته هذه بعض الوقت لإسكان بورقيبة فيها لريثما يتم إيجاد مأوى له في مكان آخر . فوافق صالح باشا وترك غرفته لبورقيبة !

© Eltaher.org

بعد أن نجح أبو الحسن في تأمين مسكن مؤقت لبورقيبة قام بتدبير مبلغ من المال جمعه من أصدقائه ومعارفه وأعطاه لبورقيبة ثم أخذه وهو مشدوه إلى فندق كونتيننتال سافوي Continental Savoy بميدان الأوبرا مقابل دار الأوبرا الملكية ، وكان وقتها واحدا من ثلاث أو أربع فنادق من الدرجة الممتازة في القاهرة ، وأنزله في الفندق بعد أن كان قد تفاهم مع مديريه . فأعطي بورقيبة غرفة على السطح ، يعتقد بأنها كانت من غرف العاملين في الفندق . وشرح أبو الحسن الأمر لبورقيبة قائلاً أن إقامته كنزيل في الفندق ستتيح له الجلوس في صالوناته ، وأن الذين سيتصلون به أو يزورونه سوف يلتقون به في أحدها ولن يصعدوا إلى غرفته . وبيّن له أن وجوده في هذا الفندق سيسهل أمر اتصاله بأصحاب الشأن والسلطة في مصر .

وهذا ما حدث بالفعل . فبعد أن نشر أبو الحسن عددا من المقالات حول وجود بورقيبة في القاهرة وقدمه إلى زائريه كل مساء في "دار الشورى" حتى تقاطر عليه الصحافيون والوطنيون والسياسيون والباشوات والوزراء والسفراء والأدباء وزعماء العرب اللاجئين في القاهرة . وأصبح بورقيبة نجماً سياسياً واجتماعياً ليس في القاهرة فحسب ، بل وفي المشرق العربي ، خاصة بفضل شخصيته القوية التي تشع من عينيه الزرقاوين في وجه أسمر البشرة ، هذا إلى جانب حسن مطلعه وإجادته لكل من العربية والفرنسية بطلاقة فضلاً عن بلاغته واطلاعه عن قرب على شؤون العالمين العربي والغربي ، حيث كان قد درس المحاماة وتدرج في تلك المهنة في فرنسا . كما أنه كان متزوجا في ذلك الوقت من سيدة فرنسية اسمها ماتيلد لوران (Mathilde Lorrain).

بورقيبة مع الأمير فيصل بن عبد العزيز وزير خارجية المملكة العربية السعودية و مستشاره الشيخ حافظ وهبة
في مقر هيئة الأمم المتحدة بنيويورك عام ١٩٤٦

© Eltaher.org

هذا وقد استمرت صداقة الرجلان حتى نهاية عمرهما . ولم ينس بورقيبة دور صديقه ورفيق جهاده أبا الحسن قط ، حيث دعاه هو وأم الحسن لزيارة تونس فور حصولها على الاستقلال عام ١٩٥٦ وكرر ذكر قصة لقائهما الأول في عدد من خطبه العامة . كما دعاه مرات أخرى لزيارته بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية التونسية .

أبو الحسن وقرينته مع رئيس الوزراء الحبيب بورقيبة في مكتبه بالقصبة - تونس ١٩٥٦

أبو الحسن بصحبة رئيس الجمهورية التونسية الحبيب بورقيبة و قرينته وسيلة في موكب رسمي بتونس ١٩٦٣

وعندما قام الرئيس بورقيبة بزيارة رسمية للبنان في مارس (آذار) ١٩٦٥ قام هو وقرينته الثانية وسيلة (بن عمّار) وعدد من وزرائه بزيارة أبا الحسن في شقته بشارع جان دارك برأس بيروت بموكب رئاسي رسمي تتقدمه موتوسيكلات الحرس الجمهوري اللبناني .

الرئيس الحبيب بورقيبة في زيارة لأبا الحسن بشقته في بيروت عندما قام بزيارة رسمية للبنان في مارس (آذار)١٩٦٥
من اليمين إلى اليسار: محمد علي الطاهر وعن يساره ابنه الحسن و إلى يمينه ابنته منى مرتدية زي فولكلوري تونسي/فينيقي
ثم الرئيس بورقيبة فقرينته وسيلة و إلى جانبها أم الحسن

ولما توفي أبو الحسن في ٢٢ أغسطس (آب) ١٩٧٤ أرسل بورقيبة البرقية التالية التي حررها بنفسه إلى أسرة أبا الحسن :

"بمزيد الحسرة وبالغ الأسى تلقيت نعي صديق الكفاح المخلص الوفي المجاهد العربي الصامد محمد علي الطاهر . ذلك الرجل الذي قضى حياته مكافحاً ومناصراً لسائر القضايا العربية بقلمه ولسانه وماله . ولن أنسى تلك الفترة التي توطدت فيها بيني وبينه الأخوّة في الجهاد . وقد كان أول من عرفت من المجاهدين العرب الصادقين ، فكان لي خير أنيس في دار الغربة ، ونعم المعين في التعريف بالقضية التونسية لدى الصحافة العربية . وبقي على حسن عهده وجميل وفائه وخالص صداقته التي تزداد على مر الأيام إلاّ رسوخاً وتوطداً . نسأل الله أن يلهمنا جميعاً جميل الصبر على هذا المصاب الجسيم وأن يغدق على ضريح فقيدنا العزيز أبي الحسن شآبيب رحمته ويجعله في رفقة الشهداء والصدّيقين ، وحسن أولئك رفيقا والله أكبر وإنا لله وإنا إليه راجعون .

الحبيب بورقيبة
رئيس الجمهورية التونسية"

هذا وقد أطلق اسم محمدعلي الطاهر فيما بعد على أحد شوارع تونس العاصمة في حي "موتوال فيل" Mutuelleville الراقي .

شارع محمد علي الطاهر بحي موتوالفيل في تونس العاصمة عام ٢٠٠٠

© Eltaher.org

تهريب الأمير عبد الكريم الخطابي من قبضة فرنسا

وردت قصة تهريب الأمير عبدالكريم الخطّابي[٣٥] في عدد من الكتب والمقالات العربية والفرنسية[٣٦] بسيناريوهات تتناول تفاصيل متنوعة . وعزت "بطولة" القائمين بها لعدد من الجهات والناس ، غير أن أي منها لم يذكر المصادر التي استقى منها تلك القصة سوى مقالين نشرتهما جريدة "الحياة" الصادرة في لندن في ٥ مارس (آذار) ١٩٩٥ وجريدة الشرق الأوسط الصادرة هي الأخرى في لندن في عدديها الصادرين بتاريخ ١١ و١٢ يوليو (تموز) ١٩٩٣ . وكانت جريدة الحياة قد نشرت قصة الأمير الخطابي بقلم أبا الحسن في عددها الصادر بتاريخ ٧ يونيو (حزيران) ١٩٦٢ أيام كانت تصدر في بيروت[٣٧] . هذا بالإضافة إلى ما ذكره محمد علي الطاهر عام ١٩٥١ في كتاب "ظلام السجن" ، ثم في كتاب "خمسون عاما في القضايا العربية ".

ونورد هنا وقائع القصة مع أسانيدها التاريخية كما وردت في تلك المقالات وفي كتاب "ظلام السجن" وكتاب "خمسون عاماً في القضايا العربية" ، ثم في كتاب كريم ثابت باشا ، المستشار الصحفي للملك فاروق ملك مصر، الذي كان يعرف محمد علي الطاهر معرفة جيدة [٣٨].

الأمير عبد الكريم الخطابي عند القبض عليه عام ١٩٢٦

"ولد الأميرعبد الكريم الخطابي في الريف بشمال المغرب على شاطىء البحر الأبيض المتوسط عام ١٨٨١ ، وهو من قبائل ورياغل المشهورة لدى قبائل البربر في المغرب الأقصى ، أي المملكة المغربية . وقد ناضل في شبابه ضد الإحتلال الإسباني للشمال المغربي ، في الوقت الذي كانت فيه الحركة الوطنية المغربية تناضل في سبيل استقلال الوسط والجنوب المغربيين الواقعين تحت الإحتلال الفرنسي.

وكانت معركة "أنوال" الشهيرة التي وقعت بين قواته وقوات الجنرال سيلفستر الإسباني General Manuel Fernandes Sylvestre عام ١٩٢١ المعركة الفاصلة التي انتصر فيها على عدوه ، حيث أسر عدة مئات من الجنود الإسبان وقتل العديد منهم ، ثم أخذ يوسع نطاق عملياته باتجاه وسط المغرب . غير أن كلا من الاستعمار الفرنسي والإسباني شعرا بالخطر الداهم ، فأرسلت فرنسا جيوشها لتساند القوات الإسبانية وتمكنت من أسره ، ثم قامت بنفيه هو ومعظم أفراد أسرته إلى جزيرة لاريونيون La Réunion في المحيط الهندي عام ١٩٢٦ وبقي منفياً فيها حتى عام ١٩٤٧"[٣٩].

وقد غيرت ظروف أسره مجرى التاريخ المغربي الحديث ، خاصة بعد أن كان قد أعلن الجمهورية في شمال المغرب في الوقت الذي كانت فيه بقية البلاد تحت الإحتلال الفرنسي وإن كانت إسمياً تحت حكم الأسرة الملكية العلوية التي ينتسب إليها الملك الحالي محمد السادس .

كان محمد علي الطاهر وهو في القاهرة على علاقة متينة بالحركة الوطنية في المغرب العربي ، أي في كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى منذ العشرينات . وقد ربطته بزعماء حركات التحريرفي تلك البلدان صداقة متينة وزمالة جهاد ومنهم الأميرعبد الكريم الخطابي وإن كان الرجلان لم يلتقيا من قبل . وكان أبوالحسن ينشر أخبار ثورة الريف وأخبار الحركة الوطنية المغربية بصفة عامة في جريدته ثم في الكتب التي قام بنشرها .

في يوم ٢٣ مايو (أيّار) ١٩٤٧ تسلم أبو الحسن برقية من السيد عبده حسين الأدهل من فضلاء بلدة الشيخ عثمان بجوار عدن ، يقول فيها صاحبها أن "الأمير عبد الكريم الخطابي قد غادر عدن على الباخرة كاتومبا" . ونثبت هنا صورة تلك البرقية كما وردت إلى أبا الحسن.

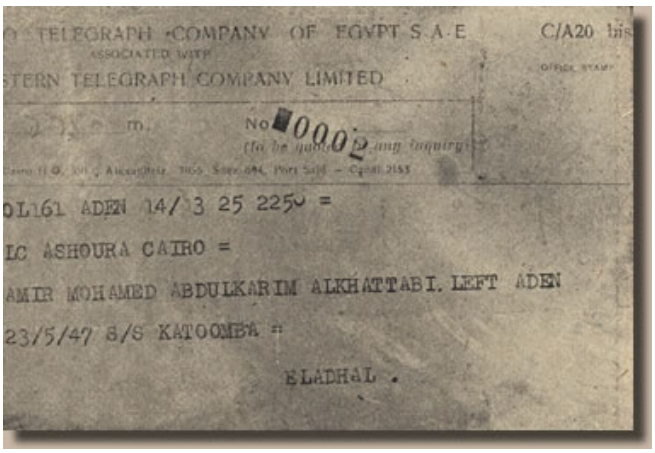
TELEGRAPH COMPANY OF EGYPT S.A.E
ASSOCIATED WITH
STERN TELEGRAPH COMPANY LIMITED
C/A20 bis
No 0002
0L161 ADEN 14/3 25 2250 =
LC ASHOURA CAIRO =
AMIR MOHAMED ABDULKARIM ALKHATTABI. LEFT ADEN
23/5/47 S/S KATOOMBA =
ELADHAL .

برقية عبده حسين الأدهل إلى أبي الحسن

كانت هنالك إشاعات جارية قبل وصول برقية عبده حسين الأدهل بأن فرنسا على وشك أن تنقل عبدالكريم من منفاه في جزيرة لاريونيون إلى سجن جديد في فرنسا . وكان أبو الحسن وأعضاء مكتب المغرب العربي في القاهرة خلال الأربعين[٤٠] على علم بتلك الإشاعات ، غير أنه لم تكن لديهم أي معلومات عن كيفية نقله ولا موعده. فور تسلمه البرقية قام أبو الحسن بالتذاكر معهم في أمرها ، واتفق الجميع على خطة لإنقاذ الأمير عبد الكريم من أيدي الفرنسيين لدى وصول الباخرة الى مصر.

في مكتب المغرب العربي بالقاهرة عام ١٩٤٥ . من اليمين إلى اليسار: الحبيب ثامر ، علال الفاسي مؤسس و زعيم حزب الاستقلال المغربي مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني ، الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة و محمد علي الطاهر

© Eltaher.org

شرع أبو الحسن بالخطوة الأولي من الخطة ، حيث وجه البرقية التالية بعد منتصف ليل ٢٧مايو (أيّار) ١٩٤٧ إلى الملك فاروق ، ملك مصر آنذاك .

جلالة مولانا الملك المعظم
سراي القبة بمصر

"وردتني برقية من عدن بأنه قد مرّ بها الأمير محمد عبدالكريم الخطابي أمير الريف بمراكش وأسير فرنسا بجزيرة ريونيون منذ عشرين سنة . وهو بطريقه لمنفاه الجديد بجنوب فرنسا ، وستصل به الباخرة "كاتومبا" غداً الثلاثاء للسويس ، وإنقاذه معلّق بإشارة كريمة من جلالتكم بدعوته للنزول ، ولا سُلطة لفرنسا عليه سوى سلطة الخاطف على المخطوف . فهو ليس بفرنساوي ، وما دامت الباخرة في مياهنا فهي تحت سلطة محافظ السويس قانوناً . إن مكارم جلالتكم التاريخية بنظر العالم الإسلامي هي التي أوحت إلي برفع هذا الحادث لمقامكم السامي مع الدعاء بحفظ الذات العلية " .

التوقيع : محمدعلي الطاهر – رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر"

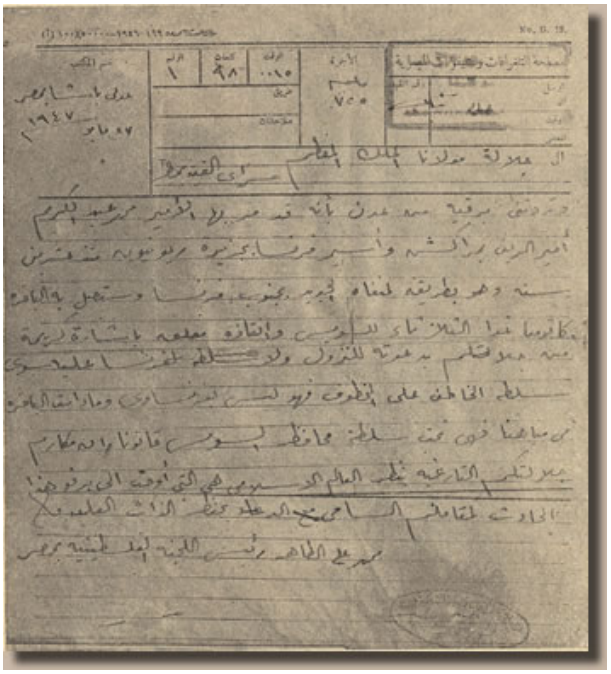

برقية أبو الحسن إلى الملك فاروق

© Eltaher.org

وقد ارسل أبو الحسن البرقية رأساً إلى سراي القبة ، أي مقر إقامة الملك ، و ليس إلى ديوانه في سراي عابدين ، وذلك للتأكد من وصولها في نفس الليلة . عند وصولها بعد منتصف الليل قام رئيس الحرس بتسليم الملك البرقية فاطلع عليها ثم وضعها في جيبه دلالة على أهميتها وأمر رئيس الحرس بأن يطلب من رئيس الوزراء ورئيس الديوان الملكي أن يحضرا قبل ظهر اليوم التالي للاجتماع به في ديوانه بسراي عابدين .

ويمكن الاطلاع على تفاصيل ما دار في القصر في مذكرات كريم ثابت باشا[٤١]، المستشار الصحافي للملك ، التي قال فيها بالحرف الواحد أن "الجندي المجهول" في قصة التجاء الأمير عبد الكريم إلى مصر من أولها إلى آخرها والذي أرسل البرقية إلى الملك هو الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة "الشورى". وكانت تلك المذكرات قد نشرت في بادىء الأمرعلى حلقات في جريدة الجمهورية الصادرة في القاهرة يوم ٢ مايو (أيار) ١٩٥٦ .

استعد أبو الحسن بالتفاهم مع كريم ثابت باشا وبالتشاور مع إخوانه أعضاء مكتب المغرب العربي بالقاهرة يوم ٣١ مايو (أيار) ١٩٤٧ لتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة حيث توجه قسم منهم إلى ميناء السويس للقاء الأمير والتذاكر معه في مسألة تهريبه ، بينما توجه الفريق الآخر إلى ميناء بورسعيد لتنفيذ المرحلة الأخيرة من الخطة . بعد أن وصلت الباخرة إلى ميناء السويس ، صعد إليها الأميرالاي محمد حلمي حسين بك الذي كلفه الملك فاروق بإبلاغ الأمير عبد الكريم تحية ملكية سامية من طرفه وطرح عليه فكرة لجوئه إلى مصر . فوافق الأمير من حيث المبدأ وإن كان قد بوغت بالفكرة ، واتفق الاثنان على أن ينزل الأمير وحاشيته في بورسعيد ، أي بعد اجتياز قناة السويس كي يتمكن الأمير من التشاور في الأمر مع أفراد أسرته . استقل الأميرالاي محمد حسين حلمي بك بعد ذلك قطارا إلى بورسعيد كي يأخذ الجواب من الأمير عبد الكريم لدى وصول الباخرة .

ما أن رست الباخرة في بورسعيد حتى صعد اليها حلمي بك حيث أخبره الأمير عبد الكريم بأنه قد استقر رأيه على قبول دعوة الملك . وعند ذلك لقّنه حلمي بك تفاصيل التمثيلية التي مثلت بعد ذلك ، لكي تستطيع السلطات المصرية أن تقول أن عبد الكريم وضعها أمام الأمر الواقع بالتجائه هو وأسرته إلى مصر .

السفينة الأسترالية "كاتومبا" ©Australian War Memorial

نزل الأمير عبد الكريم من الباخرة مع أفراد أسرته في بورسعيد بحجة زيارة المدينة كما زار مدينة عدن من قبل . غير أنه توجه مع مستقبليه من أعضاء مكتب المغرب العربي إلى جانب محمد علي الطاهر الذين كانوا في انتظاره إلى دار الحكومة حيث كان محافظ بورسعيد فؤاد شيرين باشا ينتظره . وهناك طلب الأمير اعتباره لاجئاً سياسياً في مصر . وتوجه الجميع فورا إلى القاهرة حسب الخطة المرسومة . وذهب الأمير الى قصر عابدين حيث رحب به كريم ثابت باشا باسم الملك ومن هناك أخذته وصحبه سيارات القصر الملكي إلى استراحة الملك في إنشاص القريبة من القاهرة . وهكذا ما أمسى المساء حتى كان الأمير وأسرته في القاهرة ضيوفاً على مصر . وبذلك تم انقاذهم من يد السلطات الفرنسية .

© Karim Thabet

الملك فاروق وعن يمينه الأمير عبد الكريم و عن يساره كريم ثابت باشا في استراحة الملك بإنشاص قرب القاهرة

وتجدر الإشارة هنا أنه في عام ١٩٧٧ عرف الحسن إبن محمد علي الطاهر الذي كان يعمل آنذاك في المملكة العربية السعودية أن الضابط الفرنسي الذي رافق الأمير عبد الكريم من جيبوتي حيث توقفت السفينة حتى تهريبه في بورسعيد كان مقيماً في العاصمة السعودية الرياض وأن اسمه الكولونيل ميشيل لوسور Lieutenant Colonel Michel Lesourd ، وهو ضابط سابق في الجيش الفرنسي ، فقابله وعرف منه أنه كان قد عُيّن نظرا لتحدثه العربية باللهجة المغربية إلى جانب أهل البربر ، عين ليرافق الأمير الخطابي على الباخرة المذكورة من ميناء جيبوتي إلى عدن فالسويس فبورسعيد حيث وقعت عملية اختطاف الأمير ، وقد أكّد قصة هرب عبدالكريم للحسن وأطلعه على مقدار الإرتباك الذي وقع بين صفوف المسؤولين الفرنسيين الذين لم يخطر ببالهم أن يحدث ما حدث[٤٢]

من اليمين إلى اليسار: محمد علي الطاهر ، الفريق عزيز باشا المصري الأمير عبد الكريم الخطابي ، الشيخ صبري عابدين في احتفال تكريمي للأمير عبد الكريم بالقاهرة عام ١٩٤٧

سيف الإسلام يحي، سيف الإسلام البدر ولي عهد اليمن، محمد الخطابي، الأمير عبد الكريم الخطابي، أحمد حلمي باشا ومحمد علي الطاهر واقفا "دار الشورى" بالقاهرة عام ١٩٤٧

هذا وقد ذكر الأستاذ فاروق لقمان ، نجل محمدعلي لقمان ، صاحب جريدة "عدن كرونيكل" Aden Chronicle التي كانت تصدر باللغة الإنجليزية في جنوب اليمن، وكان والده صديقاً لمحمدعلي الطاهر ، ذكر أنه كان تلميذاً في عدن وعرف عبده حسين الأدهل الذي وجه البرقية التي حملت أخبار وجود الأمير عبد الكريم على متن تلك السفينة في طريقها إلى ميناء السويس.[٤٣]

قال الاستاذ فاروقعلى لسان الأدهل كما ورد في مذكرات الأخير أنه "في ٢٢ مايو (أيار) ١٩٤٧ أرست الباخرة كاتومبا ، الأسترالية التسجيل ، في ميناء عدن للتزود بالوقود وعلى ظهرها الأمير عبد الكريم الخطابي . ولم يكن أحد يعرف بوجود الأمير على الباخرة الراسية في الميناء . غير أنه شاءت الأقدار أن يلتقي الأدهل بأولاد الأمير الذين كانوا قد نزلوا من السفينة للتنزه في المدينة حيث التقى بهم الأدهل في شارع الزعفران بمدينة عدن دون معرفة سابقة بطبيعة الحال . غير أنه باعتبارهم من الأخوة العرب دعاهم لضيافته . وخلال حديثه معهم أجابهم أكبرهم سناً أنه إبناً للأمير عبد الكريم الخطابي بطل الريف . ثم اصطحبوه معهم إلى الباخرة حيث قابل الأمير وسلّم عليه وطلب منه أن يُشَرّفَ المدينة بضيافته له مع أفراد أسرته ."

ويضيف الأدهل في مذكراته أنه أقام مأدبة غداء في أحد فنادق عدن حضرها وجهاء وأعيان اليمن ، وأضاف أن الفندق والشوارع المجاورة له قد ضاقت بحشود المحتفين بالأمير عندما علموا بوجوده في المدينة ، كما رافق موكبه العديد من سيارات المواطنين خلال تجواله لمشاهدة معالم المدينة ". ويقول الأدهل أنه "في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ٢٣ مايو (أيار) ١٩٤٧ غادرت الباخرة ميناء عدن تقل الأمير وحاشيته ، وأنه بعد أن ودعه على ظهر الباخرة بعث بالعديد من البرقيات إلى كل من توسم فيهم القدرة على إنقاذ الأمير من أسره . وكانت إحدى هذه البرقيات موجهة إلى أبا الحسن كما ذكر آنفاً .

عند مدخل مكتب المغرب العربي بالقاهرة عام ١٩٤٧
الصف الأمامي من اليمين إلى اليسار: محمد علي الطاهر، الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة ، الأمير عبد الكريم الخطابي
الأمير فضل بن عبد الكريم سلطان لحج ، علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال المغربي
الصف الثاني من اليمين إلى اليسار: الوطني التونسي الحبيب ثامر ، محي الدين القليبي مرتديا الجبة التونسية ،
عبد الله الجفري مستشار سلاطين لحج مرتديا عمامة السلطنة المميزة ، الآخرين غير معروفة أسمائهم

ويقول أبو الحسن في حديثه لجريدة "الحياة" المذكورة أعلاه أنه "عندما نقلت فرنسا الأمير عبد الكريم وآله سنة ١٩٤٧ من منفاهم في جزيرة ريونيون ، قالت أنها تنقلهم إلى جنوب فرنسا رأفة بهم . وفي الحقيقة كانت تريد أن تهدد بالخطابي الملك محمد بن يوسف ، أي الملك محمد الخامس ملك المغرب، الذي استعصى على فرنسا إخضاعه ، كما أعجزها "تدجين" شعبه ، حتى إذا لم ينزل الملك محمد الخامس على إرادتها تلوح له بالأمير عبد الكريم الذي كان قد أعلن الجمهورية في شمال المغرب قبل أسره ، لتضعه على رأس المغرب بدلا منه . وهذه الطريقة سبق أن سلكتها فرنسا في القرن التاسع عشر عند قيام حربها مع الأمير عبد القادر الجزائري، حين أوهمت المولى عبد الرحمن ، سلطان المغرب إذ ذاك ، بأن الأمير عبد القادر يقصد الإستيلاء على المغرب وإزالة ملكه" .

فاستطاعت فرنسا بذلك إثارة السلطان على الأمير عبد القادر ، وعزل المغرب عن حرب الجزائر . كما قص أبا الحسن في نفس الحديث تفاصيل العلاقات بين الملك محمد الخامس والأمير عبد الكريم الخطابي عقب الاستقلال ، ويمكن الإطلاع عليها في صفحة ٨١٤ – ٨١٨ من كتاب "خمسون عاماً في القضايا العربية" الذي يتضمن في عدة مواقع منه تفاصيل إضافية تتناول قصة تهريب الأمير عبد الكريم الخطابي .

مؤلفات محمد علي الطاهر

نُشرت أولى المقالات التي كتبها محمد علي الطاهر في بادىء الأمر في صحف يافا وحيفا وبيروت ثم في القاهرة ، وذلك إلى أن تمكن من إصدار جريدة "الشورى" وشقيقاتها فيما بعد أي "الشباب" و"العلم المصري".

كما ألّف أبو الحسن ثمان كتب والعديد من المقالات التي نشرت في الصحف والدوريات الصادرة في مختلف أنحاء العالم العربي المهجر. علما بأن الكتب قد نفدت طبعاتها ولم يعد يتبقى من كل منها سوى نسخة أو نسختين . غير أنه يمكن الإطلاع على قسم لا بأس به من كل كتاب عن طريق "Google Books".

إذا شاء القراء أن ينزلوا أي صور ، أو نصوص من مواد هذا الموقع أو من الجرائد التي أصدرها محمد علي الطاهر أو الكتب أو المقالات التي نشرها ، أن يتفضلوا شاكرين بمجرد ذكر المصدر ،أي eltaher.org، وذلك كي تعم الفائدة على كافة القراء في المستقبل.

جرائد من تأليف محمد علي الطاهر

١ – جريدة الشورى
ISBN 978-0-9784447-8-5

صدرت جريدة "الشورى" اعتبارا من اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٤ إلى أغسطس (آب) ١٩٣١ حين سحبت السلطات المصرية امتيازها بإيعاز من الإنجليز . وقد أضحت الجريدة رمز نشاط أبو الحسن الوطني والفكري ومن هنا جاءت تسمية مكتبه "دار الشورى" .

٢ – جريدة الشباب
ISBN 978-0-9784447-9-2

عطّلت الحكومة المصرية "الشورى" من أغسطس (آب) ١٩٣١ حتى يناير (كانون الثاني) ١٩٣٧ حين قدّم الدكتور محمود عزمي جريدته "الشباب" إلى أبو الحسن دون مقابل كي يتابع نشر مقالاته الوطنية . وقد صدرت "الشباب" اعتبارا من فبراير (شباط) ١٩٣٧ إلى أبريل (نيسان) ١٩٣٩ حين عطّلتها السلطات المصرية هي الأخرى بإيعاز من الإنجليز .

٣ – جريدة العلم المصري
ISBN 978-0-9784760-0-7

بعد أن توقفت "الشباب" قدّم الصحفي المصري عبد القادر التومي جريدته "العلم المصري" إلى أبو الحسن دون مقابل كي يتابع نشر مقالاته الوطنية . وقد صدرت جريدة "العلم المصري" اعتبارا من أبريل (نيسان) ١٩٣٩ إلى أغسطس (آب) ١٩٣٩ حين أوقف أبو الحسن نشرها من تلقاء نفسه عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية وإعلان الأحكام العرفية في مصر.

هذا وقد أعادت الحكومة المصرية امتياز "الشورى" إلى أبي الحسن عام ١٩٥٣ خلال الفترة القصيرة التي كان فيها اللواء محمد نجيب ، رئيس مجلس قيادة الثورة ، على رأس البلاد . رغم ذلك منعت وزارة الداخلية التي كان على رأسها نائب رئيس الوزراء البكباشي جمال عبد الناصر ، منعت أبا الحسن من إعادة إصدار الجريدة . ولم ينشر أي جريدة بعد ذلك .

© Eltaher.org

كتب من تأليف محمد علي الطاهر

١ – "نظرات الشورى"
مطبعة الشورى ، القاهرة ، يونيو (حزيران) ١٩٣٦
ISBN 978-0-9784447-0-9

يتضمن الكتاب فصولا وملاحظات وخواطر عن العالم الاسلامي وأحواله ومجريات الحالة في فلسطين بشكل عام فضلا عن ملاحظاته وخواطره عن المؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد في القدس عام ١٩٣١ ، هذا فضلا عن مسلسل صدام أبو الحسن مع السلطات البريطانية المسيطرة في فلسطين والذي يتناول مسألة جنسيته الفلسطينية . وقد ذكر أبو الحسن في ختام كتابه "معتقل هاكستب" الذي صدر فيما بعد أنه ".. بعد عشرين عاما من ظهوره ، أي كتاب "نظرات الشورى"، لا يسعني إلا أن أتبرأ منه ، برغم نفاد طبعته . وإن سألني سائل عن سبب هذا التبرؤ، أقول أنني كنت في ذلك الكتاب طفلاً بسيطا ، لأن بعض المحتالين كانوا قد تصوروا في ذهني في تلك الأيام على أنهم ملائكة أطهارا فذكرتهم على أنهم كذلك ، فاذا بهم ينقلبون الى ثعالب!"

٢– "عن ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ " مكتب الإستعلامات الفلسطيني العربي بمصر – القاهرة ديسمبر (كانون الأول) ١٩٣٦
ISBN 978-0-9784447-7-8

وصف وأخبار ووقائع وتصاوير ووثائق عن الثورة جمعها محمد علي الطاهرعلى هيئة كتاب قام بتوزيعه مجانا للتعريف عن الحالة في فلسطين .

٣ – "ذكرى الأمير شكيب أرسلان"
القاهرة ، يوليو (تموز) ١٩٤٧
ISBN 978-0-9784447-1-6

يتضمن الكتاب ترجمة حياة الوجيه اللبناني الدرزي والوطني الإسلامي الأمير شكيب أرسلان ، أو "أمير البيان" كما كان يلقب ، ووصف وفاة فقيد العرب الكبير وصداها في أنحاء العالم العربي ، وحفلات التأبين في المشرق والمغرب والمهاجر وأقوال الصحف والمجلات والكتّاب والشعراء . ومن الجدير بالذكر أن الكثير مما نُشِرَ حول الأمير شكيب بعد وفاته قد "استُلهم" من كتاب أبا الحسن سواء من جهة المعلومات أو الصور . وقد أشار معظم مؤلفي تلك الكتب إلى المصدر ، بينما وجد البعض الآخر سبباً ما لإغفال ذكره !

٤ – "أوراق مجموعة : كتاب أحمرعن فظائع الإنجليز في فلسطين وغدر اليهود وصبر العرب"
مكتب الإستعلامات الفلسطيني العربي ، القاهرة ، أبريل (نيسان) ١٩٤٨
ISBN 978-0-9784447-2-3

يصف هذا الكتاب المُصوّر حالة فلسطين عام ١٩٤٨ قبيل أن تسقط في يد المستوطنين الأوروبيين اليهود واستبسال أهلها في الدفاع عنها مع تصوير إجمالي لفظائع الإنجليز وأفعال اليهود . وقد تم توزيع هذا الكتاب مجاناً.

٥ – "معتقل هاكستب"
الدار العالمية بمصر ، القاهرة ، ١٩٥١
ISBN 978-0-9784447-3-0

يصف هذا الكتاب ظروف و وقائع اعتقال أبا الحسن للمرة الثالثة عام ١٩٤٩ في معتقل "هاكستب" خلال فترة من عهد "حكم الإرهاب" ، أي في عهد حكومة السعديين في مصر ، مع أخبار وتحاليل وأسرار نكبة الوطن العربي ونكبة فلسطين وأسبابها . كما يعطي الكتاب وصفاً مصوراً لحياة المعتقلين السياسيين اليومية في المعتقل وكان الكثيرين منهم من أعضاء جماعة الإخوان المسلمون وبعض اليهود الذين وضعوا في الحبس الإحتياطي خلال حرب فلسطين . كما فصّل أبو الحسن في كتابه أسباب اعتقاله وغيرها من الملاحظات حول حالة جامعة الدول العربية منذ تأسيسها وحتى إطلاق سبيله .

٦ – "ظلام السجن"
دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥١
ISBN 978-0-9784447-4-7

يضم هذا الكتاب مذكّرات أبا الحسن عن حياة السجن ووصف حالة الهارب من السجون وبطش الظالمين من أجانب وعرب ، ونظرات في حالة العالم الإسلامي ودنيا العرب ، والإشارة إلى المسؤولين عن نكبة فلسطين . كما يتضمن الكتاب وصفاً للمغامرات الشيقة التي عاشها خلال هربه وتنكره منذ اعتقاله وحتى أن سلّم نفسه ، وهي المغامرات السينمائية التي شاركت فيها حرمه أم الحسن .

٧ – "رسائل بورقيبة إلى صديقه محمد علي الطاهر "
بيروت ، يونيو (حزيران) ١٩٦٦
ISBN 978-0-9784447-5-4

وهي مجموعة مختارة من رسائل زعيم تونس الحبيب بورقيبة ورئيسها فيما بعد التي بعثها إلى أبا الحسن خلال سنوات تشريده وتجواله في مختلف أنحاء العالم لشرح القضية التونسية .

٨ – "خمسون عاماً في القضايا العربية "
مؤسسة دار الريحاني ، بيروت ، ١٩٧٨
ISBN 978-0-9784447-6-1

بدأ أبو الحسن قبيل وفاته بتجميع نخبة من مقالات له سواء نشرت أو لم تنشر بغية جمعها في كتاب واحد ، وقد ذكر مرة أنه كان ينوي تسمية الكتاب "خمسون عاماً في القضايا العربية" . غير أن الأجل قد أدركه قبل أن يُطبع الكتاب وقبل أن يختار له العنوان النهائي . وقد قامت أرملته أم الحسن بالإشراف على إتمام طبع الكتاب بصورته الحالية . علماً بأن ظروف الحرب الأهلية الإنتحارية التي عصفت بلبنان في السبعينات والثمانينات قد ترتب عنها أن وقعت أغلاط في تجميع ملازم الكتاب جعلت البعض منها يقع في غير موقعه من نسخة لأخرى!

كتب وأبحاث عن محمد علي الطاهر

كتب العديد من المؤلفين عن أبا الحسن في مؤلفاتهم وكتبهم ومقالاتهم التي تناولت قضايا مصر وبلاد الشام وشمال أفريقيا وغيرها من البلدان العربية والاسلامية ومنهم : عواطف عبد الرحمن ، وفيليب دي طرزي ، ووديع فلسطين ، وخيرية قاسمية ، ووداد سكاكيني ، وفتحي رضوان ، إلخ . غير أن هنالك العديد من المؤلفات والمقالات التي وضعت خصيصاً للكتابة عنه إلى جانب ما نشر من مؤلفات وتضمن أعلاماً آخرين . علما بأن هناك كتابا واحدا فقط من تأليف سميح شبيب وضع خصيصا حول محمد علي الطاهر . هذا ونورد فيما يلي نموذجا مما نشر حول أبا الحسن:

١ – سميح شبيب
"محمد علي الطاهر: تجربته الصحافية في مصر من خلال صحفه ١٩٢٤–١٩٣٩"
الإتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين ، شرق برس ، نيقوسيا (قبرص) ،
فبراير (شباط) ١٩٩١

يتضمن هذا الكتاب مع ما يحتويه من وثائق وتصاوير ومراجع ومصادرعربية وأجنبية أكثر ما كتب عن محمد علي الطاهر شمولاً حتى تاريخ إصداره .

٢ – الشيخ طه الولـي
"المجاهد العربي محمد علي الطاهر– وصف بقلم الشيخ طه الولي من علماء بيروت"
مطبعة دار البيان في بيروت – يناير (كانون الثاني) ١٩٦٦

٣ – بيان نويهض الحوت وخيرية قاسمية
"فقيدان فلسطينيان كبيران : عبد الحميد شومان ومحمد علي الطاهر" – شؤون فلسطينية ،
مركز الأبحاث ، بيروت ، العدد ٣٩ – نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٤

٤ – فتحي رضوان
"محمد علي الطاهر كاتب وطني وفاضل حر لا يهدأ"
مجلة الدوحة ، قطر ، مايو (أيار) ١٩٨٥

٥ – نبيل خالد الأغا
"محمد علي الطاهر عاشق الحرية "
مجلة الدوحة ، قطر ، أبريل (نيسان) ١٩٨١

٦ – يوسف حدّاد
"بريطانيا وتهويد فلسطين في أطروحات محمد علي الطاهر"
مجلة الكاتب الفلسطيني ، بيروت ، العدد ٧ – فبراير (شباط) ١٩٧٩

٧ – يعقوب العودات (البدوي الملثّم)
"من أعلام الفكر والأدب في فلسطين" – الطبعة الثانية – وكالة التوزيع الأردنية – عمان ١٩٧٨

٨ – زهير ماردينـي
"عشرة من الناس" – دار العرفان ، بيروت وصيدا ، ١٩٧٥

٩ – وديـع فلسطين
"وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره" ، الجزء الثاني ، صفحة ١٧٩ – ١٨٩
دار القلم ، دمشق ٢١١٣

١١ – الموسوعة الفلسطينيـة
تتضمن الموسوعة نبذة ذاتية عن معظم المفكرين والأدباء في فلسطين ومن كانوا من أصل فلسطيني .

١١ – منـى العاصي
"صقر فلسطين وسيد المجاهدين" – جريدة الخليج ، العدد ٧٦٦٦ ، ١٥ مايو (أيار) ٢١١١

١٢ – جعفر الخليلـي
"هكذا عرفتهم" – جعفر الخليلي – الجزء الخامس ، مطبعة دار الكتب ، بيروت ١٩٨١

© Eltaher.org

ملحق ١

وعد بالفور

النص الرسمي لما يعرف باسم "وعد بالفور" عبارة عن رسالة مؤرخة ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ وجهها وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بالفور ، باسم الحكومة البريطانية إلى الناشط الصهيوني لورد والتر روتشيلد الذي كان أيضا عميد الجالية اليهودية في بريطانيا . علماً بأن مسودة الرسالة قام بإعدادها الإتحاد الفدرالي الصهيوني .

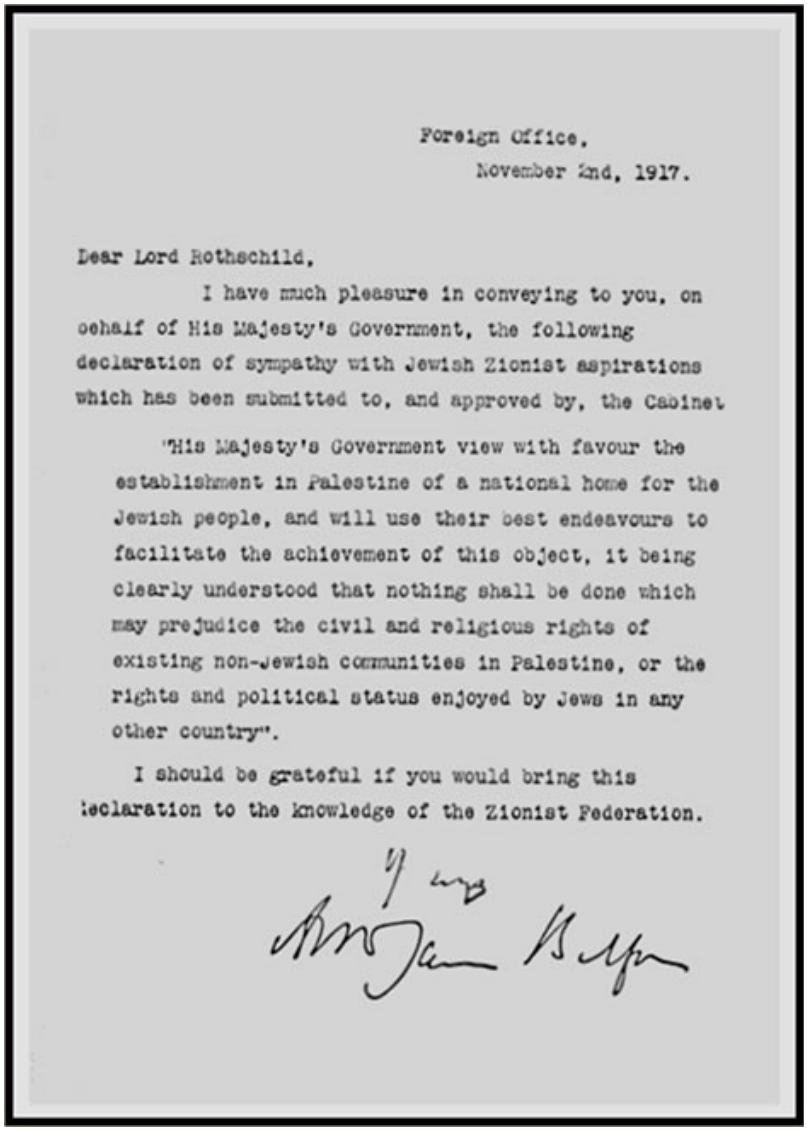

Foreign Office,
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country".

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

كان بالفور مثله مثل رئيس الوزراء لويد جورج ، أصولياً مسيحيا يعتقد بأن عودة اليهود إلى صهيون ، أي "أرض الميعاد" ، هي مؤشر لعودة المسيح المنتظر على الأرض . وقد حمله تفكيره بأنه باستطاعته أن يلعب دوراً نحو تحقيق هذا الهدف الآلهي على الشروع في حملة سياسية لتنفيذه . علماً بأن الأصوليين المسيحيين يعتقدون بأن عودة المسيح المنتظر تعني تنصير اليهود .

غير أن بالفور لم يكن يعلم بأن نزول المسيح للمرة الثانية على الأرض لا يعني شيئاً بالنسبة لليهود الذين ما يزالوا ينتظرون ظهور المسيح للمرة الأولى . كما أن اليهود لا يتطلعون إلى تلك العودة التي ستفرض عليهم أن يتنصروا .

ترجمة رسالة لورد بالفور

وزارة الخارجية
٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧

عزيزي اللورد روتشيلد ،

يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة صاحب الجلالة التصريح التالي الذي عرض على الوزارة وأقرته والذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية :

"تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذا الهدف ، على أن يفهم بشكل واضح أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى" .

وسأكون ممتناً إذا ما أحطتم الإتحاد الصهيوني علماً بهذا التصريح .

المخلص

آرثر بالفور

لقد حولت تلك الرسالة البريئة المظهر برنامجاً لجمعية صهيونية يهودية أهلية لتأمين وطن قومي لليهود إلى سياسة رسمية تبنتها الحكومة البريطانية . أي أن تلك الحكومة أخذت على عاتقها استخدام سلطتها وجبروتها لتنفيذ هذا البرنامج . إلاّ أن التعهد الذي أخذته بريطانيا على عاتقها لم يتضمن تقديم قطعة من أراضي بريطانيا ، بل استحلال وطن أناس آخرين ، أي الأمة الفلسطينية التي تسكن تلك البلاد منذ آلاف السنين ، والتي تحولت بقدرة قادر حسب نص الرسالة من كونها تشكل الأغلبية الساحقة للمواطنين الأصليين إلى مجرد " طوائف غير يهودية مقيمة في فلسطين"!

لقراءة المزيد حول وعد بالفور وغيره من الأمور المتصلة بهذا الموضوع ، الرجاء الإطلاع على الكتب التالية:

- "A Peace to End All Peace" by David Fromkin, Henry Holt publishers, New York 1989
- "Paris 1919" by Margaret Macmillan, Random House publishers, New York 2000
- "Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizman", Harper, New York 1949

ملحق ٢

أمير البيان الأمير شكيب أرسلان

كان الأمير شكيب أرسلان (أبو غالب) (١٨٦٩ – ١٩٤٦) أحد أقرب الناس إلى أبي الحسن . ولا نبالغ إذا قلنا أن الأمير الذي كان يكبره سنّاً كان مثله الأعلى في الكثير من الأمور . فالأمير شكيب أرسلان وجيه لبناني بهي الطلعة من أمراء الطائفة الدرزية الذين لعبوا دوراً هاماً في حياة سوريا ولبنان السياسية ولاتزال تلك الأسرة تلعب دوراً عن طريق حفيده لابنته مي أي وليد جنبلاط الذي يعتبر حالياً عميد طائفة الدروز في لبنان .

حاول الأمير شكيب أرسلان في زمانه أن يجمع العرب بصفة عامة والمسلمين بصفة خاصة رغبة في توحيد كلمتهم لمقاومة الإستعمار الأجنبي الذي أنهك بلادهم و شعوبهم . حيث اعتبر الأمير شكيب الإسلام كعامل سياسي واجتماعي للتوحيد بين تلك الشعوب دون أن يُقحم نفسه في النواحي الدينية .

ولولا أنه يتحدر من أسرة على مستوى معقول من الثراء والوجاهة والعزوة لدى الدولة العثمانية لصعب عليه لعب الدور الوطني الذي تبنّاه لنفسه . فكان قائمقاماً للشوف في لبنان عام ١٩١٨ ، ثم نائباً لحوران (في سوريا) في البرلمان العثماني ، كما لعب دوراً سياسيا رئيسياً خلال السنوات التي نفته فيها فرنسا إلى سويسرا ، عبراتصالاته القوية مع قادة تركيا الحديثة عند نهاية الدولة العثمانية ، أي أنور باشا ، وطلعت باشا ، وجمال باشا ، ومصطفى كمال أتاتورك . كما كانت له علاقات قوية مع كبار المسؤولين في ألمانيا ما بين الحربين ، وكذلك مع الحركات الوطنية في كل من المغرب والمشرق العربي . أنجب الأمير شكيب ولدا اسمه غالب وابنتان ، نظيمة و مي (والدة وليد جنبلاط) من زوجته سليمة الخص التي كانت من أصل شركسي .

للوقوف على تفاصيل الدور الذي لعبه الأمير شكيب يُشار على القارئ بالإطلاع على الكتب التالية ، إلى جانب الكتاب الذي ألّفه أبو الحسن أي "ذكرى الأمير شكيب أرسلان":

– "أمير البيان شكيب أرسلان" ، تأليف الشيخ أحمد الشرباصي ، القاهرة ١٩٦٣

- “New episodes in Moroccan nationalism under colonial role: reconsideration of Shakib Arslan’s centrality in light of unpublished materials”, by Dr. Umar Ryad, The Journal of North African Studies, Vol. 16, No. 1, March 2011, 117 –142.

- “Islam against the West: Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism”
By William L. Cleveland, University of Texas Press, Austin, Texas 1985.

(من دواعي الأسف أن بداية عنوان هذا الكتاب غير موفقة ، كما أنها تفقده قيمته . فلا الإسلام ضد الغرب ولا الأمير شكيب كان ضد الغرب هو الآخر، فضلاً عن أن محتوى الكتاب لا يعكس فحوى تلك العبارة . ومن الجائز أن عبارة “Islam against the West” قد اختيرت لتسويق الكتاب في أمريكا الشمالية .)

ملحق ٣

أحمد حلمي باشا

لعب أحمد حلمي عبد الباقي باشا (١٨٨٢ – ١٩٦٣) دوراً سياسياً واقتصادياً وإنسانياً لا مثيل لهما في مسيرة قضية فلسطين ، وقام بأدوار وطنية بارزة للحفاظ على عروبتها والدفاع عنها منذ بداية القرن الماضي . علماً بأن نضاله في سبيل القضايا الوطنية بدأ منذ أيام الدولة العثمانية عندما شارك في الدفاع عن سوريا الكبرى والعراق من الإحتلال العسكري البريطاني .

فقد قاد فرقة من المتطوعين الذين قاتلوا إلى جانب القوات العثمانية وهزموا الجنرال تشارلز تاونشند البريطاني في موقعة كوت الإمارة عام ١٩١٥ في العراق خلال الحرب العالمية الأولى . وبعد أن تولى الأمير فيصل بن الحسين الحكم في سوريا عُيّنَ مديراً عاماً لوزارة المالية إلى أن احتل الفرنسيون دمشق فتوجه إلى عمان حيث اختاره الشريف حسين بن علي (شريف مكة) ناظراً لخط سكة حديد الحجاز .

وقد شارك حلمي باشا في تأسيس البنك العربي في فلسطين عام ١٩٣١ ثم البنك الزراعي ، وبعدها صندوق الأمة ، فبنك الأمة العربية عام ١٩٤١ . وكان الهدف الرئيسي من المشاريع الثلاث الأخيرة توفير القروض للفلاحين الفلسطينيين لإنقاذ الأراضي العربية التي تسعى الوكالة اليهودية الإستيلاء عليها بالتعاون مع حكومة فلسطين البريطانية .

وقد نفته سلطات الإنتداب البريطانية سنة ١٩٣٧ إلى جزر سيشل في المحيط الهندي مع رفاقه في اللجنة العربية العليا الدكتور حسين فخري الخالدي ويعقوب الغصين وفؤاد سابا ورشيد الحاج ابراهيم[٤٤] وذلك بهدف تجميد القيادات الفلسطينية إثر ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٧ – ١٩٣٩ . وقد عيّنه الملك عبد الله الأول خلال عام ١٩٤٨ حاكماً عسكرياً لمدينة القدس باعتباره وقتها الزعيم الفلسطيني الوحيد الموجود في المدينة والقائم فعلياً على تنظيم الدفاع عنها . فقد كان مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني الزعيم الفعلي للشعب الفلسطيني في ذلك الوقت هارباً من بطش بريطانيا خارج فلسطين .

عندما قررت جامعة الدول العربية إنشاء حكومة عموم فلسطين [٤٥] في غزة في ٢٣سبتمبر (أيلول) ١٩٤٨ واختارت أحمد حلمي باشا كأول رئيس لها بادر الملك عبد الله الأول بعزل أحمد حلمي باشا من منصب الحاكم العسكري للقدس . فقد كان الملك شديد المعارضة لتلك الحكومة التي اعتبر أنها خُلقت من قبل الجامعة العربية ومنافسيه من المسؤولين العرب كي يحولوا دونه ووضع يده على القدس التي كان يسعى الحصول عليها . كما أنه كان مقتنعاً بأن هؤلاء الزعماء كانوا يحاولون منعه من ضم بعض مناطق فلسطين إلى مملكته عن طريق المحادثات السرية التي كان يقوم بها مع قادة الحركة الصهيونية . وكانت فلسطين قد سقط معظمها عندئذ بيد اليهود . أما ما تبقي منها وهو ما أصبح يعرف فيما بعد بالضفة الغربية فقد وضع الملك عبد الله الأول يده عليه ثم ضمه إلى الأردن .

فلما نجح اليهود في السيطرة على معظم فلسطين وبعد أن استسلمت باقي الحكومات العربية التي أرسلت جيوشها لتدافع عنها تحت ستار اتفاقيات الهدنة الدائمة ، وجد الباشا نفسه على رأس حكومة بدون وطن ، فاستقر في القاهرة كمدير لبنك الأمة العربية الذي كان قد أنشأه كما ذُكرآنفاً إلى أن أممت الحكومة المصرية جميع البنوك الأجنبية عام ١٩٦١ . فغادر القاهرة واستقر في بيروت . وكان قد بلغ التاسعة والسبعون . وقد أدركه الأجل عام ١٩٦٣ وهو في لبنان ونُقل جثمانه بالطائرة إلى القدس حيث ووري الثرى في الحرم القدسي مثله مثل قائد المجاهدين عبد القادر الحسيني كما ذكر في هذا الموقع.

ورغم مشاغله العديدة كان حلمي باشا شاعراً بليغاً . هذا وكان له ابن واحد من زوجته الثانية اسمه محمد (تزوج محمد سُعاد ابنة وطني فلسطيني آخر هو وجيه حيفا رشيد الحاج ابراهيم) . كما كان لحلمي باشا ثلاث بنات من زوجته الأولى هن وصفية (زوجة السياسي الليبي منصور قدارة) وسنية (زوجة عبد الحميد شومان ، صاحب البنك العربي في فلسطين) ونائلة (زوجة عبد المجيد شومان ، أي ابن عبد الحميد شومان) . هذا وقد ارتبطت عائلة حلمي باشا وأحفاده بأسرة أبو الحسن وأبنائه بصداقة حميمة .

ملحق ٤

وديـع فلسطين

مع أن اسمه قد يوحي بأنه فلسطيني ، الأمر الذي يجعله يفتخر بهذا الإسم . وإنما هو مصري صميم من صعيد مصر . فأسرته تنتمي إلى مدينة نقادة [٤٦] بمحافظة قنا ، وإن كان هو قد ولد في مركز أخميم بمحافظة سوهاج .

يحمل وديع فلسطين درجة بكالوريوس من قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، حيث تخرج عام ١٩٤٢ . ومارس الصحافة السياسية والإقتصادية والأدبية منذ ذلك التاريخ أي على مدى ٦٧ عاما . وتألق نجمه في صحيفتي "المقتطف" و "المقطم" بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٢ حيث رأس القسم الخارجي وعمل في جميع الأقسام الأخرى ، وأسند إليه كتابة المقالات الإفتتاحية اليومية التي كانت تنقلها الصحف الأجنبية والعربية ، كما اختير عضوا في مجلس إدارة وتحرير هذه الدار إلى أن أغلقت كما أغلقت الكثير من الصحف في مصر في تلك الفترة .

ألف وديع فلسطين وترجم ما قد يجاوزعدده أربعين كتابا في الأدب والإقتصاد والسياسة وعلوم الصحافة التي قام بتدريسها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة على مدى عشر سنوات بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٧ . ولعل أهم كتبه الأدبية الكتاب الصادر عام ٢٠٠٣ والمعنون "وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره ، وهو في جزئين ، يسجل فيهما علاقاته بنحو مئة من الأعلام في مصر والبلاد العربية والمهاجر وديارات المستشرقين . وقد ذُكر بأنه أول من تنبأ بأن نجيب محفوظ سوف يصبح ذا شهرة عالمية . وبالفعل فقد حاز على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٨ .

شارك في إخراج عدد من الموسوعات منها "الموسوعة العربية الميسرة" ، و"موسوعة الإقباط" باللغة الإنجليزية الصادرة في ثمان أجزاء عن جامعة يوتاه في الولايات المتحدة الأمريكية ، و"موسوعة أعلام مصر والعالم" ، و"موسوعة من تراث القبط" .

وإلى جانب مئات المقالات التي كتبها والتي نشرت في مختلف أنحاء العالم العربي ، شغل وديع فلسطين منصب مدير مكتب شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) في القاهرة ، كما أشرف على نشر مجلة "قافلة الزيت" التي كانت تصدرها الشركة إلى جانب مجلة "أرامكو وورلد ماجازين" الشهيرة والمتخصصة في البلدان العربية والإسلامية وحضاراتها ، والتي تعتبر مثيلة لمجلة "ناشيونال جيوجرافيك" ذات الشهرة العالمية .

هذا وقد كتب عنه وعن انتاجه الفكري العديد من الكتاب في مصر وغيرها من البلدان مثل اللمحة التي نشرت على صفحة كاملة من جريدة الأهرام عام ١٩٩٦ بقلم السيدة صافيناز كاظم ، حيث ذكرت أن "هوايته الفكرية هي البحث عن تعبيرات علمية أغفلتها القواميس المتخصصة" . كما وصفت استخدامه للغة العربية بأنه "أنيق لدرجة أنه يجعل محبي تلك اللغة يشهقون من شدة إعجابهم" . وأن "اسلوبه الأنيق الظريف يصل إلى أعماق الشخصية التي يتحدث عنها مزيلا الحواجز بين المؤلف والمؤلف عنه" .

انتخب وديع فلسطين عضوا في مجمعي اللغة العربية في كل من سوريا (١٩٨٦) والأردن (١٩٨٨) الشهيرين ، ومن المستغرب أنه لم يدعى لدخول مجمع اللغة العربية في بلده ! وهو أحد الأدباء المصريين القلائل الذين لهم شهرتهم في أنحاء العالم العربي وليس فقط ضمن حدود مصر . وكما كان أبو الحسن صاحب رؤيا شاملة للعالم المحيط به ، فوديع فلسطين صاحب نظرة شمولية أدبية هو الآخر ، فلم يقع فريسة للنظرة المحلية الضيقة . وفي الوقت الذي أصبح الناس يحبسون أنفسهم خلف هويات دينية ، كان وديع فلسطين فكريا بعيدا كل البعد عن ذلك مثله مثل معظم من يتعامل معهم . كان عصره عصر مفكري العرب من رجال ونساء من الذين حرروا أنفسهم من قيود الضيق الفكري والنظرة المحلية الضيقة التي تكتم الأنفاس .

كان وديع فلسطين وأبو الحسن صديقان حميمان ، وتبادلا مراسلات أخوية وأدبية لسنوات طوال إلى أن توفي أبا الحسن . وما فتأت كتاباته تذكر صديقه أبا الحسن و "دار الشورى" . ومثله مثل صديقه وغيرهما من المفكرين، فقد حبس وعومل بكيفية مخجلة . وقد مرتلاث أجيال من المصريين الذين لم يسمعوا به ، ولكنهم اكتشفوه اليوم كما اكتشفته صافيناز كاظم .

عند كتابة هذه السطور عام ٢٠١٠ ، لا يزال وديع فلسطين الذي تعدى الثمانون، لا يزال يكتب وينشر ويترجم ويراسل ويحضر المؤتمرات الأدبية في مصر وفي الخارج . والآن وقد "اكتشف من جديد" ، فقد عادت مقالاته الأدبية ومراجعاته تظهر في المطبوعات المصرية .

ملحق ٥

علي أحمد باكثير

كان الكاتب والمؤلف المسرحي علي أحمد باكثير من ألمع كتاب مصر خلال الأربعينات والخمسينات، وهو أصلا حضرمي من أندونيسيا حيث كانت تقطن جالية كبيرة من التجار الحضارم الذين وفدوا على تلك البلاد من جنوب اليمن ، ويعود لهم الفضل في نشر الإسلام بين أهلها . ومن بين ما ألفه من مسرحيات شهيرة مسرحيتي "مضحك الخليفة" التي تم عرضها على مسرح دار الأوبرا الملكية بالقاهرة عام ١٩٥٤ ومسرحية "مسمار جحا" التي عرضت هي الأخرى في دار الأوبرا عام ١٩٥٥ . وكانت علاقة أبا الحسن به علاقة عائلية ، حيث كانت قرينة باكثير وابنه بالتبني فوزي يتبادلان الزيارة مع أسرة أبا الحسن .

هناك قصة مشوقة تجمع بين باكثير وأبا الحسن خلال هرب الأخير من السجن وتخفيه بين عام ١٩٤٠ وعام ١٩٤١ في مختلف أنحاء القطر المصري . تعود صداقة أبا الحسن مع باكثير إلى عام ١٩٣٣ حين وفد الأخير إلى مصر قادماً من أندونيسيا عن طريق الحجاز وحضرموت وطنه الأصلي بقصد طلب العلم . فالتحق بالجامعة المصرية حيث أحرز على ليسانس كلية الآداب ، ثم التحق بمعهد التربية العالي فحاز شهادته . ولما أكمل دراسته وأراد العودة إلى أندونيسيا مسقط رأسه وقعت الحرب العالمية الثانية وانقطعت الطريق إلى الشرق الأقصى .

بقي باكثير في مصر واشتغل في التعليم وتأليف القصص التاريخية والأدبية الناجحة . فكل مسابقة تعلنها وزارة المعارف أو إحدى الهيئات الثقافية لتأليف رواية أو قصة ، كان باكثير يدخلها فيفوز بالجائزة مع طبع مؤلفه . وقد بلغ من نبوغه المثالي أن وزارة الشؤون الإجتماعية طلبت سنة ١٩٤٧ ست روايات في مواضيع معينة وأقامت مسابقة لذلك مصحوبة بمكافئة باهظة ، فتلقت الوزارة خمسمائة رواية . ولما فحصت اللجنة المختصة ذلك الجبل من الروايات اختارت ستاً منها . ولما فتحت غلافات الأسماء ظهر أن باكثير قد فاز بروايتين من الست روايات . وهو فوز باهر لا مثيل له . فداعبته إحدى الصحف طالبة من الحكومة منعه من دخول المسابقات ...

باكثير يساعد هارب من السجن

بعد مرور سنة على إعلان الحرب العالمية الثانية ، أوعزت السلطات البريطانية في مصر إلى السلطات المصرية بالقبض على أبا الحسن وحبسه كما جرى ذكره في النبذة الذاتية بسبب ما كان يكتبه وينشره من مقالات ضد الإستعمار البريطاني في مصر والمشرق والإستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا وبلاد الشام والإستعمار الهولندي في أندونيسيا والإستعمار الإيطالي في ليبيا . علما بأن بريطانيا لم تحتج على كتابات أبا الحسن ضد عدوتها إيطاليا التي كانت تحتل ليبيا نظرا لتحالفها مع ألمانيا النازية .

لما هرب أبو الحسن من مستشفى السجن تنكر بزي شيخ ريفي وجعل يتنقل باستمرار في مختلف أنحاء القطر المصري . من بين البلاد التي مكث فيها متخفيا أكثر من غيرها هي مدينة المنصورة ذات الشهرة التاريخية . وذات مساء وبينما كان أبا الحسن يسير في إحدى الحارات فوجيء بالأستاذ علي أحمد باكثير يمر من أمامه ، فمشي خلفه وأخذ يتتبعه على بعد قليل ثم حاذاه ووضع يده على كتفه وسلم عليه . فالتفت إليه الأستاذ باكثير بسرعة ، ولكنه بمجرد أن سمع صوته عرفه حالاً وأقبل يعانقه ويسأله عن حاله ثم واصلا السير بينما قص عليه أبو الحسن قصته . وانتهى بهما المسير إلى دار الأستاذ باكثير حيث عرّف أبو الحسن عن حاله وعن كونه قد تعين مدرساً للغة الإنجليزية بمدرسة الرشاد الثانوية بعد أن انقطعت أسباب الإتصال بينه وبين أهله في أندونيسيا ، كما أخبره بأنه يسكن المنصورة منذ شهور وأن هذه الدار داره ، ولكنه ليس وحده فيها ، لأنه تزوج ، وأن إحدى قريبات زوجته تسكن معهما .

وفي الصباح شرع باكثير يطوف المدينة بحثاً عن دار تتوفر فيها شروط الهارب من أعوان الاستعمار البريطاني لتصلح سكنى لأبا الحسن لربثما تنفرج الأحوال . وقد عثر الأستاذ باكثير على شقة صغيرة تتوفر فيها تلك الشروط في حي "ميت حدر" في زقاق ضيق . وقد كتب عقد الإيجار بالاسم المستعار الذي كان يستخدمه أبو الحسن ولكن بكفالة وتعريف الأستاذ باكثير . ولولا سكنى الأخير في المنصورة ووظيفته لما استطاع أبو الحسن أن يجد مأوى .

وفي تلك الأثناء وقعت حادثة سقوط طائرة اللواء عزيز باشا المصري في قليوب شمال القاهرة وكان البحث عنه يجري بكل همة . فقد كان عزيز باشا معارضا للإحتلال البريطاني في مصر وكانت السلطات البريطانية تعتبره متعاطفا مع النازيين وتشتبه في كونه كان يحاول الوصول إلى خطوط الجيش الألماني التي كانت معسكرة على حدود مصر في الصحراء الغربية . وكان مبلغ الخمسمائة جنيه التي أعلنت عنها الحكومة مكافأة لمن يرشد إلى الباشا وزميليه الطيار عبد المنعم عبد الرؤوف ومساعده الطيار

باكثير ومحمد علي الطاهر في المنصورة عام ١٩٤٢ أمام كوبري طلخا

حسين ذو الفقار صبري كفيلة بتحويل الكثيرين إلى صيادين لأن مثل ذلك المبلغ في تلك الأيام كان يعد ثروة عظيمة .

تصور أبو الحسن ذلك وكيف أنه قد يظن بأنه هو عزيز المصري فلم يتردد عن العمل السريع . فجمع كتبه وما عنده من ملابس وجعل الجميع في صرة وغادر الدار إلى حيث يسكن باكثير . فقص عليه القصة وأودعه الصرة ومفاتيح الدار، وأوصاه بأن لا يذهب إلى تلك الجهة ، لأنه إن حدث شيء فلابد من أن يصلوا إليه للسؤال عن أبا الحسن حسب اسمه المستعار ، لأنهم سيسألون صاحب الدار عنه فيقول لهم لا أدري سوى أنه استأجر المنزل مني بواسطة باكثير ، فيسألون باكثير فيقول لهم أن الأستاذ ذهب إلى القاهرة لإحضار أسرته دون أن يذكر وضع المفاتيح عنده . وقد سافر أبو الحسن بعد ذلك إلى دمياط ، فطنطا ، فالإسكندرية ، فبنها فالزقازيق . وفي اليوم الثالث رجع إلى المنصورة، حيث ترصد الأستاذ باكثير بعيداً عن داره إلى أن لقيه . فقال له الأخير أنه لم يقع شيء خلال غيابه وأن أحداً لم يسأل عنه .

باكثير في مهمة خطرة بالقاهرة

بقيت أم الحسن مقيمة في شقتها بشارع شبرا خلال هرب زوجها ولكن تحت الرقابة المستمرة والملاحقة ليلاً ونهاراً من قبل المخبرين الذين كان رؤسائهم في البوليس والقلم المخصوص وإدارة الشؤون العربية يتعاونون مع الإنجليز ، رغم ذلك فقد كانت محور الإتصال بين زوجها في مخبئه والوطنيين وأصحاب الشهامة في مصر والعالم العربي . وفي إحدى المرات طلب أبو الحسن من باكثير السفر إلى القاهرة وتوصيل رسالة إلى قرينته . فوافق باكثير وسافر إلى القاهرة ومعه الرسالة .

وقد رسم هو وأبا الحسن خطة تنفيذ تلك المهمة : متى وصل إلى العمارة التي تسكنها أم الحسن يصعد الدرج على رجليه إلى الطابق الخامس بدون أن يركب المصعد حتى لا يرافقه البواب . وأن لا يسأل البواب عن شقة أبا الحسن حتى لا يسمعه مخبر البوليس القابع عند باب العمارة فيشتبه به ، وإن سأله أحد عن الشقة التي يريدها يقول له أنه يقصد منزل جار أبو الحسن المهندس عباس جمجوم الذي كان هو وزوجته السيدة نفيسة يعرفون كل شيئ عن أبا الحسن وهربه من السجن ، وأن يجعل وصوله للعمارة بشكل يوهم من يراه أنه معتاد صعودها وأنه عارف بمسالكها ، وبذلك يتفادى كل شبهة إلخ . ثم شرح له أبوالحسن ما سينتظره من شكوك عباس أفندي وتحفظه وأنه سينكر علاقته بأسرة أبا الحسن .

المقابلة وتأدية الرسالة

قرع باكثير جرس باب شقة المهندس عباس جمجوم المحاذية لشقة أبو الحسن ، فخرج إليه وتبين له أن ملامحه لا تشكل خطرا ما فرافقه إلى الصالون وهو لا يدري عنه شيئاً . ولما جلس سأله عن الخدمة التي يريدها فأسمعه باكثير أولاً بعض عبارات خاصة وحكايات لا يعرفها إلا عباس وأبو الحسن . ولكن عباس بقي متحفظاً فأخرج باكثير رسالة بعنوان أم الحسن وطلب إليه تسليمها إليها بواسطة حرمه السيدة نفيسة . وأفهمه بأنه بخط أبوالحسن وأراه العنوان والخط . فاطمأن عباس وذهبت قرينته إلى شقة أبا الحسن وأخبرت قرينته بوجود رسول من قبل زوجها . فجاءت إلى دار عباس حيث عرفت باكثير فوراً وأخذت الرسالة . فكان سرورها عظيماً لأنها لم تكن تدري منذ شهرين أين زوجها . ومن الطريف أن السلطات البريطانية كانت تتصور أن أبا الحسن قد وصل خفية إلى لبنان أو فلسطين ، فأرسلت زبانيتها لتفتيش بعض البيوت وسؤال بعض الأشخاص عن أبا الحسن هناك بينما لم يكن قد غادر القطر المصري !

حكاية إخفاء أوراق محمد علي الطاهر عند باكثير

كثرت الأوراق عند أبا الحسن وفيها كل ما دونه من مذكرات ، فخطر له أن يبعدها عنه ويودعها مكاناً أميناً . ولكن من يجسر على تحمل مسؤولية إخفاء هذه "العقارب" على حد تعبيره في الوقت الذي كانت ثمينة مثل روحه كما دون في كتابه "ظلام السجن" . وأخيراً اهتدى إلى طريقة كان قد قرأ عنها في كتب القصص الأمريكية ، وذلك أنه اشترى من أحد باعة الصور الملونة صورة قرية أوروبية بإطارها وزجاجها ، ففك الزجاج من الإطار ومزق الصورة وجاء بصورة لبدوية حسناء قصها من جريدة مصوّرة ووضعها في الإطار بدلا من تلك ، ثم دس جميع الأوراق التي يريد حفظها بين ظهر الصورة وبين الكرتون الخلفي قبل الزجاج ، ثم أرجع كل شيء إلى أصله وعلّق الصورة على الحائط .

ولم يكن ذلك كافياً بالطبع ، لأن الشرطة إن اهتدت إلى أبا الحسن فإنها ستضبط بطبيعة الحال جميع ما في الغرفة ومن الجملة الصورة . وسوف تظل في خطر سواء تركها رجال الشرطة أم أخذوها . فصار كلما زاره باكثير يصعد النظر إليها ، ويتأملها عن قرب ، وذات مرة استحسن باكثير الصورة فطلبها من أبو الحسن الذي لم يتردد للحظة فأهداه إياها . وهكذا أخذ باكثير الصورة إلى بيته وعلقها في غرفة مكتبه وهو لا يدري أنها تحتوي على الكنز المكنون.

ومضت الأيام وصار أبو الحسن يزور منزل باكثير أكثر مما كان وكل غرضه هو أن يطمئن على الصورة ، مثل جحا لما كان يكثر من زيارة الدار التي باعها وترك فيها المسمار... وكان باكثير يحدثه في كل زيارة عن الصورة وجمالها وحسن وقعها في نفسه ونفوس زوّاره ، وأنهم يكثرون التأمل فيها مع أنها صورة مقطوعة من إحدى المجلات ولا قيمة فنية فيها . ولكن لسوء حظ الطاهر جعل الزوّار يفتنون بها . وأخيراً

© Eltaher.org

قال باكثير أنه يستأذنه في إهداء الصورة إلى صديق له ألح كثيراً في الاستحواذ عليها . وعند ذلك لم يجد أبو الحسن مفراً من مكاشفته بالحقيقة وأن الصورة تخفي الكنز المدفون .

فلما سمع باكثير بخبر ما في الصورة اندهش . ومن يومها صار يحرص عليها ولا يمكن أحداً منه إنزالها عن عرشها . ولما كثر المعجبون فيها أخذها من مكانها وأخفاها في صندوق كتب وكفى الله باكثير فضول أصحاب الذوق الفني السليم الذين لم تظهر عبقريتهم في معرفة قيمة اللوحات الفنية إلا يوم أخفى محمد علي الطاهر أوراقه في إطار تلك الصورة .

ملحق ٦

القائد عبد الله التل

كان القائد (أي كولونيل) عبد الله التل (أبو المنتصر) (١٩١٨ – ١٩٧٣) من أشهر ضباط الجيش العربي ، أي الجيش الأردني ، خلال حرب فلسطين (١٩٤٨ – ١٩٤٩). وكان هذا الجيش يسمى "Arab Legion" أي "الفيلق العربي" عندما أسسه الإنجليز بعد أن كونوا إمارة شرق الأردن عام ١٩٢١ والمعروفة الآن باسم المملكة الأردنية الهاشمية .

وقد تبوأ عدة مناصب قيادية خلال حياته العسكرية القصيرة نسبياً . وفي خلال معركة القدس الحرجة عام ١٩٤٨ رُقي إلى رتبة قائد (كولونيل) فحاكماً عسكرياً على القدس . وهو ابن عشيرة التل التي هي من القبائل العربية المشهورة والمحترمة في الأردن وغيره من بلدان المنطقة . ويقع موطن آل التل في منطقة إربد شمال غرب الأردن .

كان عبد الله التل ضابطاً محبوباً ومُحبّاً للموسيقى ، كما كان جميل الصوت ، فضلاً عن كونه مثالاً للخبرة العسكرية والشهامة في الميدان سواء كانت قواته منتصرة أو غير موفقة . وقد كتب الكثير من المؤرخين الجديين عنه وعن الدور اللامع الذي لعبه حتى الإسرائيليين منهم . ولايمكن التحدث عن معركة القدس عام ١٩٤٨ دون ذكر القائد عبد الله التل .

في اكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٦ أخرجت شركة سينمائية أوروبية فيلماً سينمائياً على DVD عناونه عنوانه **'O Jerusalem'** "أو جيروسالم" ، أي "وا قدساه!" وتعتمد القصة على بعض ما تضمنه كتاب بنفس العنوان بقلم دومينيك لابيير ولاري كولنز نشر عام ١٩٧١ . ويتناول الفيلم قصة موقعة القسطل ودور عبد القادر الحسيني فيها ، كما يتناول معركة حصار حارة اليهود في القدس والدور الذي لعبه القائد عبد الله التل فيها ، ويعتمد الفيلم على المعركتان كخلفية لقصة تتناول أفرادا من الفلسطينيين واليهود .

ومن الجدير بالذكر أن آخرالعمليات العسكرية التي قام بها القائد عبد الله التل خلال معركة القدس عندما رفع عيار نيرانه ضد القوات اليهودية لم تكن مؤيدة بأوامر صريحة من قائد الجيش الأردني الجنرال البريطاني جون باجوت جلوب الشهير بجلوب باشا ، وكان رجال العشائر يلقبونه بـ "أبو حنيك" لأنه كان قد فقد جزء من حنكه بسبب إصابة خلال إحدى الحروب التي خاضها في زمانه . فقد اعتبر جلوب باشا مبادرة عبد الله التل وكأنها تمرد على الأوامر . ولكي يتفادى الملامة من المسؤولين العرب الآخرين رضخ الملك عبد الله الأول على مضض لمبادرات عبد الله التل العسكرية المتحمسة . حيث كان الملك في خضم مباحثات سرية مع بعض قادة الحركة الصهيونية والوكالة اليهودية مثل جولدا مايير وموشيه شاريت وإلياهو ساسون طمعاً في الحصول على بعض أجزاء من فلسطين . وقد عكست مبادرات عبد الله التل العسكرية عدم استطاعته هو وجنوده الوقوف مكتوفي الأيدي بينما يقع مواطنيهم سكان القدس تحت رحمة نيران العدو دون من يدافع عنهم ، بينما يقوم ملكه بالتآمر مع هذا العدو .

وما أن تم التوقيع على هدنة بين الأردن والحكومات العربية الأخرى من جهة والقيادة اليهودية من جهة أخري ، علماً بأن الفلسطينيين لم يشكلوا طرفاً في تلك الهدنة أو في الإتفاقيات التي تلتها، أظهر الملك عبد الله ساعتها غضبه تجاه مبادرات عبد الله التل العسكرية التي كانت على وشك أن تفشل مخططاته . ومن دواعي العجب أن "تمرد" عبد الله التل هو الذي أنقذ القدس القديمة وأمّنها للملك عبدالله الأول، وإلا فإن قوات الهاجانا (Haganah) اليهودية كانت ستستحلها عام ١٩٤٨.

وربما أن الملك قد خشي أيضاً شعبية عبد الله التل المتزايدة ، فاتهمه فجأة بأنه يتآمر مع السوريين للإستيلاء على الحكم وضم الأردن إلى سوريا . وبدلاً من أن يعود عبدالله التل إلى بلده وعشيرته كبطل ، فقد اضطر إلى اللجوء إلى مصرحيث أمضى ما يقارب العشرون سنة كلاجئ سياسي .

وفي نهاية الأمر تعتبر عملية الدفاع عن مدينة القدس الإنتصار العسكري الوحيد ذو الأهمية الذي سجلته الجيوش العربية في حرب فلسطين ١٩٤٨ – ١٩٤٩ . فقد حالت العمليات العسكرية الناجحة التي بادر بها القائد عبدالله التل ، حالت دون سقوط مدينة القدس القديمة وبعض ضواحيها في أيدي قوات الهاجانا . وإن كانت المدينة وما تبقى من فلسطين قد سقطوا في نهاية الأمر بين أيدي الإسرائيليين عقب حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ أو "حرب الستة أيام" كما تسمى أحياناً .

انتقل عبد الله التل إلى رحمة الله في الأردن يوم ١٣ أغسطس (آب) ١٩٧٣ . وقد أنجب ابنة واحدة اسمها إيناس وخمس أبناء : منتصر وصلاح وأسامة وخالد وحمزة . وقد ارتبطت أسرة عبد الله التل بأسرة أبا الحسن بعلاقات صداقة حميمة لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا .

وقد نشر عبد الله التل مذكراته بعنوان "كارثة فلسطين"[٤٧] في القاهرة عام ١٩٥٩ . ولكن طبعاتها قد نفدت ، إلاّ أن معظم محتويات تلك المذكرات ظهرت في كتاب جديد اسمه "عبد الله التل بطل معركة القدس" قام بإعداده شقيقه الدكتور أحمد يوسف التل ونشر في عمان عام ١٩٩٩.

ملحق ٧

مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني

كان الحاج أمين الحسيني (١٨٩٧ – ١٩٧٤) مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى ديبلوماسياً رفيعاً وزعيماً سياسياً كبيراً وكأنه ملك فلسطين غير المتوج . وكان يتصرف ويتعامل مع العالم سواء في فلسطين أو في خارجها على هذا المستوى .

تميز الحاج أمين بوجه وديع ذا بشرة فاتحة اللون وعينين زرقاوين تميل إلى الإخضرار ، وكان يربي لحية صغيرة مشذبة تعكس لون شعره المائل إلى الإحمرار . وكثيراً ما كان أبو الحسن يقول أنه لو بحث المرء عن نموذج لرسم لوحة بالألوان ليسوع المسيح لكان الحاج أمين أفضل نموذج لعمل هذا الرسم !

كان للحاج أمين في حياته أعداء بقدر ما كان له أصدقاء بين الفلسطينيين والعرب بصفة عامة . ورغم الصداقة القديمة التي ربطت بين الرجلين ، لم تخلى العلاقة بين الحاج أمين وأبو الحسن من خلاف ، بل ومقاطعة ، حول مواقف سياسية . فلما حُبس أبا الحسن عام١٩٤٩ في معتقل هاكستب في مصر كانت لديه شكوك في كون الحاج أمين وراء ذلك لأن أبا الحسن لم يكن محبذاً لسياسته حيال فلسطين خلال السنوات التي سبقت سقوط البلاد بين أيدي اليهود . كما وجّه أبو الحسن اللوم جزئيا لهذه النتيجة إلى الحاج أمين . ولم يتصالح الرجلان بعد مقاطعة طويلة إلاّ بعد سنوات عديدة قرب نهاية عمرهما . فقد توفيا في العاصمة اللبنانية بيروت خلال أربعون يوما بين الواحد والآخر ، ودفنا في قبرين لا يبعدان كثيرا عن بعضهما في نفس الجبّانة . وقد أنجب الحاج أمين ابنا واحدا اسمه صلاح وست بنات هن: أسماء وسعاد وزينب ونفيسة وأمينة وجهاد .

من المسلّم به أن الحاج أمين أدار معاركه على طريقته التي كان يعتقد أنها أفضل طريقة . ولاشك أيضاً في أنه كان سياسياً محنكاً وإن لم تكن أساليبه مقبولة من الجميع ، إلاّ أنه لم يكن هناك أي شك طوال حياته حول وطنيته المخلصة . أمضى الحاج أمين آخر أيامه في لبنان في ضاحية المنصورية الكائنة على التلال المطلة على بيروت . كان بيته فسيحا وتحيط به حديقة ، ولكن حياته اليومية لم تتسم بالبذخ . كان عنده سائق اسمه برناوي ، وحارس لحمايته هو وعائلته . عندما اندلعت الحرب الأهلية المؤسفة في لبنان عام ١٩٧٥ ذكر أن إحدى المليشيات المسيحية غير المحددة هاجمت بيته وأضرمت فيه النيران ، كما ذكر ولكن دون أي إثبات أن الحريق دمر مكتبته العامرة بالكتب وكافة محتويات الأرشيف الذي كان يحتفظ به .

أتبع معظم المؤلفون الإسرائيليون والصهيونيون وأولئك الذين يسيرون في خطاهم ، خطا هجوميّاً لا يحيدون عنه ضد الحاج أمين . حيث يعيبون عليه "استخدامه للدين كسلاح سياسي" ، وهو منطق غير مقبول منهم بطبيعة الحال حيث أن المبدأ والمنطق الذي يقوم عليه خلق دولة اسرائيل هو منطق ديني من أوله لآخره .

كما لا يزال الحاج أمين موضع اتهامهم لكونه " مساندا للنازيين ومن "محبّي هتلر" حسب قولهم ، ونشروا صورا له مع الفوهرر أو مع هاينريش هيملر، قائد سرايا الدفاع (الإس إس) ، أو مع وزير الخارجية يواكيم فون ريبنتروب وغيرهم كدليل على تعاونه مع النازيين ، مع تقديم الأسانيد الفوتوغرافية لإثبات الجريمة ، وهو أمر ليس صحيحاً بالطريقة التي يصورونها . ولكي يحافظ المرء على شيء من النظرة الشمولية التاريخية حيال تلك المسألة ، فقد لجأ الحاج أمين فعلاً إلى ألمانيا وحاول استمالتها كي تساند الفلسطينيين في محنتهم ضد الإحتلال العسكري البريطاني لبلادهم ، إضافة إلى سياستهم الرامية إلى إغراق فلسطين بمهاجرين أوروبيين من أتباع الدين اليهودي . ولكن يجب الأخذ بعين الإعتبار أن الإنجليز طاردوه للتأكد من بقاء الفلسطينيين دون قيادة ولم يتركوا له أي خيار سوى اللجوء إلى أعدائهم الإيطاليين في بادئ الأمر ثم الألمان . صحيح أن سياسته بالنسبة لألمانيا لم ترضي جميع الفلسطينيين ، إلا أنه لم يكن لديه أي خيار آخر نظراً لمطاردة الإنجليز له طوال فترة الحرب العالمية الثانية وقبلها وبعدها لأنه قاوم سياستهم الإستعمارية في فلسطين .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في بداية تعاملهم مع المسؤولين البريطانيين اعتقد زعماء فلسطين أنهم يتعاملون مع "جانتلمان إنجليز" . حيث كانت مقاومة الفلسطينيين تتم بشكل حضاري عن طريق عقد اجتماعات معهم وتبادل رسائل ومذكرات وتقديم عرائض مثل "الجانتلمان" المتحضرين . غير أنهم سريعا ما اكتشفوا أن ذلك لم يتعدى المظاهر ، حيث أن تعامل هؤلاء "الجنتلمان" معهم كان بدون ذرة من الأخلاق . وهكذا وجد الفلسطينيون أنفسم مرغمين على اللجوء إلى السلاح ضدهم بعد أن اقتنعوا بأنها اللغة الوحيدة التي يفهمونها . إن مسؤولية بريطانيا في فاجعة شعب فلسطين مسؤولية عظيمة ، ولا يزال على الإنجليز أن يصفوا هذا الحساب بسبب ما اقترفوه باستحلال أرض فلسطين ، بل وأسوء من ذلك ، بالتبرع به لأناس آخرين .

على الأغلب كان الحاج أمين على علم بما صنع الحدّاد بين النازيين واليهود في أوروبا ، إلا أنه لا هو ولا أي من العاملين معه كانت لديهم أي فكرة عن حملات الإبادة غير المقبولة التي جرت بحق اليهود والشعوب السلافية والغجر في معسكرات الإعتقال . وما قام به بكل بساطة هو

اتباع منطق "عدو عدوي صديقي" . وفي المحصّلة من لم يتصرف هكذا على مدى تاريخ البشرية قديماً أو حديثاً ؟[٤٨]

وفي هذا الصدد كتب محمد علي الطاهر ما يلي في كتابه "نظرات الشورى حول أهل فلسطين والنازيين في ألمانيا تحت عنوان " اليهود في ألمانيا" " :

"ذكرت وكالات الأنباء من بريسلو بألمانيا في ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٣٢ ، أنه قد وقعت مصادمة بين اليهود وأنصار هتلر . فبينما كان فريق من أنصار هتلر يبلغ عددهم ثلاثمائة يسيرون في الشوارع التقوا بموكب جنازة يهودي . وكان أنصار هتلر يقابلون المارة من اليهود صائحين: "أيها اليهود! اذهبوا إلى فلسطين!" . وعندما التقوا بموكب الجنازة صاحوا قائلين: "هذا واحد ذهب إلى فلسطين وسنتخلص قريبا من الباقين" . لما قرأت هذا التلغراف اسودت الدنيا في وجهي ولم يسعني إلا الإنضمام مع اليهود في الدعاء على الهر هتلر الزعيم الألماني بالخيبة وقصف الرقبة قبل أن يقوى هو وجماعته لئلا يقبضوا على زمام الحكم في ألمانيا.

"نعم لقد اتفقت وجهة نظري كفلسطيني عربي من جهة هتلر مع نظرية اليهود . فنحن مع اليهود قد اتفقنا واختلفنا في وقت واحد . وهذه أول مرة في حياتي أقف فيها ضد حركة وطنية وأتمنى خيبتها وفشلها ، وإليك البيان . "أنا كفلسطيني عربي يهمني عدم وجود باعث في جهة من جهات الدنيا يبعث اليهود إلى المجيء لفلسطين . فهتلر الوطني الألماني بمطاردته لليهود سيفلح في النهاية بطردهم أو بطرد بعضهم من ألمانيا . فهؤلاء سوف لا يجدون مقرا يستقرون فيه إلا فلسطين ، فسقوط حركة هتلر وإن كان فيه ما يضر الحركة الوطنية الألمانية إلا أن فيه حياة بلادي . ولذلك أرجو أن يسمح لي قرائي بأن أظهر بهذا المظهر من الأنانية لأن حب البقاء سليقة في الإنسان لا يمكن أن يتحول عنها . إذن فأنا برغم أنفي أدعو لليهود في ألمانيا بكل خير ، أما إن فاز هتلر واضطهد اليهود – سلمهم الله هناك فقط –فيا فنكبة فلسطين الدهماء ويا لوقعتها السوداء ، لأن جموعهم تفد عند ذلك على فلسطين كالجراد والعياذ بالله ولاسمح الله ."[٤٩]

ملحق ٨

عبد القادر الحسيني

عبد القادر الحسيني (أبو موسى) (١٩٤٨ – ١٩٠٨) ، ابن زعيم فلسطين الأول موسى كاظم باشا الحسيني ، كان بدون منازع القائد الأكثر شهرة خلال مختلف مراحل نضال شعب فلسطين والمقاومة ضد الإحتلال العسكري البريطاني لبلاده ، ثم ضد المستوطنين المسلحين اليهود الذين أتت بهم بريطانيا من أوروبا .

وقد ناضل خلال ثورة فلسطين الكبري (١٩٣٦ – ١٩٣٩) وقام بتنظيم المقاومة في الجبال المحيطة بمدينة القدس . وقد أصيب بإصابات خطرة خلال معارك ١٩٣٩ وتوجه بعدها إلى العراق للعلاج ثم انضم عام ١٩٤١ إلى ثورة الوطني العراقي رشيد عالي الكيلاني (عالي وليس علي) وحارب ضد القوات البريطانية في العراق . وقد أسره الإنجليز وحبسوه لمدة عامين بينما وضعت زوجته السيدة وجيهة الحسيني تحت الإقامة الجبرية خلال تلك الفترة في بغداد . وقد تدخل الملك عبد العزيز آل سعود بشأنه فأطلقته السلطات البريطانية . أقام أبو موسى فترة قصيرة في المملكة العربية السعودية ثم غادرها إلى القاهرة عام ١٩٤٦ . وقد باع أبو موسى ما يملكه هو وزوجته من أرض وعقار وأنفقا ما حصلا عليه من مال لشراء السلاح والذخيرة للدفاع عن وطنهما ووطن أجدادهما فلسطين .

حاول أبو موسى وهو في القاهرة أن يحصل على أسلحة وذخائر للمجاهدين الفلسطينيين عن طريق جامعة الدول العربية ولكنه فشل فشلاً ذريعاً . ولم يحول ذلك الفشل دونه والسفر إلى فلسطين خلسة كي لا يقبض الإنجليز عليه ، ونجح في الوصول إلى القدس بعد إعلان قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ . وقام بمحاولة يائسة وشبه انتحارية للدفاع عن مدينة القدس . غير أنه قتل يوم ٧ أبريل (نيسان) ١٩٤٨ خلال معركة القسطل التي نجحت فيها القوات اليهودية على إعادة احتلال تلك القرية الواقعة غرب القدس . وقد دفن في الحرم القدسي بعد جنازة شارك فيها الآلاف في فلسطين بينما شاركهم آلاف مثلهم تضامناً معهم في مختلف بلدان العالم العربي والإسلامي . وإذا أراد المرء أن يقارن أبو موسى من حيث الشجاعة والتفاني وحسن الطلعة بقائد له شهرته في التاريخ المعاصر لجاز اعتبار أبو موسى "تشي جيفارا" الفلسطينيين .

أنجب أبو موسى وقرينته ابنة اسمها هيفاء وثلاث أبناء هم موسى وفيصل وغازي . هذا وقد ارتبطت أسرة أبو الحسن بأسرة أبو موسى على مر السنين بوشائج صداقة عائلية حميمة شملت الأزواج والزوجات والأبناء .

كان ابنه فيصل الحسيني هو الآخر وطنيا ومناضلاً سياسياً لا يكن لسنوات طويلة ، كما كان مديرا لبيت الشرق في القدس . تبوأ فيصل مسؤولية ملف القدس لدى السلطة الوطنية الفلسطينية تحت رئاسة ياسر عرفات على أثر اتفاقيات أوسلو . وقد توفي في الكويت في يونيو (حزيران) ٢٠٠١ إثر أزمة قلبية . ولو كان الاسرائيليون جدّيون في موضوع إيجاد تسوية موضوعية وفعّالة بين الشعبين ، كما أنه لو كانت القيادات الفلسطينية وقتها على مستوى المسؤولية لكان فيصل الحسيني أفضل من يتحمل تلك المسؤولية بالجدية والفعالية المطلوبة لتحقيق هذا الهدف الذي لا يزال كالسراب المتباعد في البادية.

في اكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٦ أخرجت شركة سينمائية أوروبية فيلماً سينمائياً على DVD عنوانه **'O Jerusalem'** "أو جيروسالم" ، أي "يا قدساه!" وتعتمد القصة على بعض ما تضمنه كتاب بنفس العنوان بقلم دومينيك لابيير ولاري كولنز نشر عام ١٩٧١ . ويتناول الفيلم قصة موقعة القسطل ودور عبد القادر الحسيني فيها ، كما يتناول معركة حصار حارة اليهود في القدس والدور الذي لعبه القائد عبد الله التل فيها ، و يعتمد الفيلم على المعركتان كخلفية لقصة تتناول أفرادا من الفلسطينيين واليهود .

مراجع وحواشي

١ – نبيل خالد الأغا – "محمد علي الطاهر عاشق الحرية" – مجلة الدوحة ، قطر ، أبريل (نيسان) ١٩٨١ .

٢ – أي سوريا (أو سورية) الكبرى التي أضحت تعرف فيما بعد
بسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن

٣ – للإطلاع على جانب من تاريخ مصر في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين يرجي زيارة الموقع التالي الذي يشرف عليه سمير رأفت : www.egy.com

٤ – يطلق العرب اسم يهود على كل من أتباع الدين اليهودي أينما كانوا وكذلك على مواطني دولة اسرائيل . ومنعا للالتباس، عندما يشير هذا الموقع إلى اليهود ، إنما يعني اليهود كجسم سياسي أو كحركة صهيونية وليس كديانة. حيث أن التفاعل بين العرب واليهود خاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين لا علاقة له بالديانات. من المهم أن نذكر القارئ بأنه في تلك الحقبة من الزمن، بل وحتى في يومنا هذا، لا يزال الكثير من الناس يحددون هوية الآخرين حسب دينهم أو ملتهم أو عقيدتهم، وليس حسب منشأهم العرقي. وهكذا فإنه في سياق الحديث عن اليهود في المقولة الفلسطينية على الأخص، فإن الإشارة إلى اليهود إنما يعني اليهود الأوروبيين سواء الذين دخلوا فلسطين خلسة، أو الذين جاءوا بتصريح من سلطات الإحتلال البريطانية. كما أن الإشارة إلى المسلمين إنما تعني أتباع العقيدة الإسلامية قاطبة أكانوا عربا أم عجما. أما عبارة "كافة العرب" كما هي مستخدمة في هذه الوثيقة، فتعني كلا من العرب المسلمين والمسيحيين . ففي إيرلندا الشمالية وغيرها من البلدان على سبيل المثال يحدد المواطن هويته كإرلندي كاثوليكي أو إرلندي بروتستانتي. كما نجد اليوم ومنذ ١٩٤٨–١٩٤٩أن الفلسطينيون الذين يتبعون الدين اليهودي يصفون أنفسهم بأنهم يهود كما أن غيرهم في المجتمع الفلسطيني كانوا يصفون أنفسهم بأنهم مسلمين أو مسيحيين (نصارى). وبعد قيام دولة اسرائيل أصبح يهود فلسطين يسمون أنفسهم اسرائيليين. أما في العالم العربي اليوم فإنه يشار إليهم أحيانا بأنهم يهود، وأحيانا أخرى بأنهم اسرائيليين. وينطبق ذلك على تسمية الفلسطينيين من قبل الإسرائيليين الذين يشيرون إليهم أحيانا بأنهم عرب وأحيانا بأنهم فلسطينيين .

٥ – للحصول على معلومات إضافية حول بعض الشخصيات الفلسطينية والمجاهدين ورجالات الحركة الوطنية ، يرجى مراجعة الموقع الآتي : www.passia.org

٦ – هي إحدى شركات بنك مصر الذي أسسه طلعت حرب باشا عام ١٩٢٠ ليكون نواة أول مؤسسة اقتصادية وطنية مصرية مائة بالمائة تم تأسيسها لمواجهة الغزو الاقتصادي لمصر من قبل مصالح أجنبية ، وخاصة للحد من تصدير القطن الخام من مصر لنسجه وتصنيعه في بريطانيا بدلا من تشغيل العمال المصريين

٧ – لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع يمكن الإطلاع على الكتاب التالي:
(Michael J. Cohen, "Churchill and the Jews", 2nd Edition, Frank Cass, London (2003

٨ – بعد إطلاق سراحه ، بحث أبو الحسن عن العسكري ، أي الشرطي ، الذي كان مكلفا بحراسته في المستشفى يوم هربه بعد أن علم أن رؤسائه قاموا بجلده بالكرابيج بسبب تقصيره . فقدم له تعويضا ماليا عما حل به بسببه

٩ – Russel B. Huckstep ضابط أمريكي أطلق اسمه خلال الحرب العالمية الثانية على معسكر للجيش الأمريكي على طريق القاهرة – السويس بُعيد مطار فاروق الذي أصبح يعرف فيما بعد بمطار القاهرة الدولي . وقد تحول المعسكر إلى معتقل بعد انتهاء الحرب

١٠ – عندما وجدت الجارة السيدة نفيسة جمجوم العصفور وقفصه على السلم تعجبت لذلك أشد العجب لأنها تعرفت عليه . فلما طرقت باب شقة أبا الحسن ولم يجبها أحد أدخلت العصفور إلى شقتها لبينما تتبين الأمر . ولكن حدسها ألهمها بأن شيئا غير عادي قد وقع . وبالمناسبة ، فقد كان كل من أبي الحسن وأم الحسن يحبان الحيوانات ، وكانا يربيان قطة في شقتهم . حتى أن أبا الحسن قد اقتنى قطة وهو في مخبئه خلال الهرب ، وقد أطلق عليها اسم "حبيسة"

١١ – للوقوف على الوضع السياسي في مصرفي تلك الحقبة يرجى الإطلاع على "مذكرات ابراهيم طلعت: أيام الوفد الأخيرة ، دار الهلال ، القاهرة ٢٠٠٢

١٢ – أنظر كتاب "جندي مع العرب" من تأليف جلوب باشا
John Bagot Glubb, "A Soldier with the Arabs", Harper – 1957

١٣ – Avi Shlaim, "Collusion across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine".
.New York: Columbia University Press, 1988
أنظر أيضا فيلم "امرأة اسمها جولدا " تمثيل إنجريد برجمان من إخراج شركة باراماونت عام ١٩٨٢

١٤ – بعد قيام دولة اسرائيل اندمجت عدة قوات محاربة يهودية تحت لواء قوات الهاجانا وأصبحت تعرف باسم .جيش الدفاع الإسرائيلي"

١٥ – من مفارقات الزمن أن أحمد الشقيري ، أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية لدى تأسيسها عام ١٩٦٤ ، كان قد دعا أبا الحسن لمساندة المنظمة ، غير أن أبا الحسن رفض رفضا باتا القيام بذلك وأخبر الشقيري بأن الدول العربية خلقت المنظمة للسيطرة على الحركة الوطنية الفلسطينية وتصفية قضية فلسطين . ومن الجدير بالذكر أن ياسر عرفات (أبو عمار) ثاني رئيس للمنظمة لم يقابل أبو الحسن قط ، غير أنه جاء لتقديم تعازيه الشخصية لأسرته عقب وفاته

١٦ – جريدة كوكب الشرق بمصر ٦ مارس (آذار) ١٩٣٦

١٧ – General Sir John G. Dill

١٨ – General Sir Archibald Wavell

١٩ – General Sir Robert Haining

٢٠ – Benny Morris – 1948: The First Arab–Israeli War – Yale University Press, New Haven, Connecticut (2008) – P392–393.
"كما يشار إلى الكتاب التالي من تأليف الصحفي الأمريكي فنسانت شيان ، وخاصة الفصل الأخير بعنوان "الأرض المقدسة
Vincent Sheean – "Personal History", Doubleday, Doran & Co., Garden City, New York (1935), particularly the last Chapter entitled “Holy Land”, pp.333–398.

٢١ – في شهر يوليو (تموز) ١٨٥٣ في الوقت الذي لاحت فيه بوادر حرب القرم ووجدت الدولة العثمانية نفسها مهددة من قبل والي مصر محمد علي الكبير، كتب أنطوني آشلي كوبر (إيرل شافتسبوري) ، وهو مسيحي إنجيلي ، إلى رئيس الوزراء البريطاني جورج هاميلتون جوردون (إيرل أبردين) قائلا أن سوريا الكبري عبارة عن "أرض بدون شعب" تبحث عن "شعب بدون أرض" . وأشار إلى "وجود الشعب اليهودي القديم ، سيد تلك الأرض التاريخي وصاحب الحق فيها" . كما ذكر في مذكراته أنه "يجب تسليم تلك الأراضي إلى جهة ما" وأضاف قائلا: "ها نحن أمام بلد بدون شعب وأن الحكمة الالهية ورحمته تدعونا نحو شعب بدون بلد". وهكذا ولد التعبير الذي تبنته الحركة الصهيونية لوصف فلسطين أي " أرض بدون شعب لشعب بدون أرض". علما بأنه لا يوجد أي دليل إذا ما كان شافتسبوري قد زار فلسطين في حياته لمعرفة ما إذا كانت مأهولة أم لا.
أشار سايمون سيباج مونتفيوري في كتابه المذكور فيما يلي أن شافتسبوري استلهم العبارة الشهيرة ، أي "بلد بدون شعب" ، من القس الإسكتلندي ألكسندر كيث . ثم نسبت تلك العبارة فيما بعد (عن طريق الخطأ كما يشير مونتفيوري) إلى أسرائيل زانجفيل ، وهو صهيوني لم يساند مخطط استيطان فلسطين لأنها كانت في نظره عامرة بسكانها العرب . أنظر حاشية كتاب مونتفيوري في صفحة ٣٤٨
Simon Sebag Montefiore, “Jerusalem: The Biography”, footnote p. 348 – Alfred Knopf, New York (2011).

المصدر: Diana Muir, Middle East Quarterly, spring 2008, pp. 55–62 as cited in Garfinkle, Adam M., “On the Origin, Meaning, Use and Abuse of a Phrase.” Middle Eastern Studies, London, Oct. 1991, vol. 27, p. 539).

٢٢ – ذكر الكاتب الإسرائيلي بيني موريس في كتابه "١٩٤٨ : الحرب العربية الإسرائيلية الأولي " أن زعيم الحركة الصهيونية "دافيد بن جوريون كان متفهما لتلك المواقف المتعارضة . وكما قال لزملائه خلال ثورة فلسطين ١٩٣٦–١٩٣٩ : أنه يجب أن ننظر إلى الوضع على حقيقته . فمن الناحية الأمنية نحن المعتدى عليهم ونحن الذين في حالة دفاع عن النفس. غير أنه من الناحية السياسية فنحن المعتدين والعرب هم المدافعين عن أنفسهم . إنهم يعيشون في البلاد ويمتلكون الأرض والقرية . نحن نعيش في الشتات وهدفنا الوحيد هو الهجرة (إلى فلسطين) وانتزاع الأرض منهم . المصدر:
1948: The First Arab–Israeli War – Yale University Press, New Haven, Connecticut (2008) P393.
((Ref: Protocol of meeting of the Jewish Agency Executive, 7 July 1938, Ben–Gurion Archive

© Eltaher.org

"بعد سنوات طويلة من تأسيس دولة اسرائيل أوضح بن جوريون وجهة نظر العرب في حديث مع الزعيم الصهيوني ناحوم جولدمان حين قال له: " إنني لا أفهم نظرتك المتفائلة ... ما الذي يدفع العرب إلى إقامة سلام معنا؟ لو كنت زعيما عربيا لما تفاهمت مع اسرائيل أبدا . وهذا شيء طبيعي : فقد استولينا على بلدهم . صحيح أن ذلك كان وعدا من الله ، ولكن ذلك لا يعنيهم . فآلهنا ليس إلههم . صحيح أن أصولنا في فلسطين ، ولكن ذلك كان منذ ألفي عام وهذا أمر لا يهمهم . لقد واجهنا اللاسامية والنازيين وهتلر ومعسكرات آوشفيتس ، فهل كانوا السبب في ذلك ؟ إنهم يرون شيئا واحدا فقط . نحن جئنا هنا وسرقنا بلدهم . فلماذا يقبلون ذلك؟" المصدر: Goldmann, Nahum. The Jewish Paradox. Translated by Steve Cox. London: Weidenfeld and Nicolson, 1978).

٢٣ – يعتبر اليهود الأصليين من أقوام البحر الأبيض المتوسط والجزيرة العربية . وقد يكونوا أشقاء وأبناء عمومة للعرب من حيث الأصل العرقي . ويشبه أكثرهم العرب من حيث الهيئة العامة لدرجة أن الشرطة الإسرائيلية كثيرا ما تشتبه في البعض منهم وتقوم بتفتيشه ظانة أنهم "إرهابيين عرب" .

٢٤ – الوقوف على مختلف القوى على كل من الساحة السياسية الإسرائيلية واليهودية يشار بالإطلاع على المؤلف التالي :
Au Nom du Temple: Israël et l'irrésistible ascension du messianisme juif par Charles Enderlin, Éditions du Seuil, Paris 2013.

٢٥ – وصف جيلا سفيرسكي لحملة "نساء ترفض" التي رفضت المشاركات فيها " أن نربي أبنائنا كي نرسلهم إلى الحرب وأن نتجاهل جرائم الحرب التي ترتكب باسمنا وأن نساند الإحتلال وأن نستمر في حياتنا اليومية بينما توجد أمة أخرى تعاني بسببنا". المصدر: Gila Svirsky, "Nonviolence in the Israeli Women's Peace Movement" August 31, 2003 – Quoted from the book by Maxine Kaufman-Lacusta, "Refusing to be enemies", Ithaca Press, Reading, UK (2010) pp. 334, 437.
http://groups.yahoo.com/group/GSN/message/22207

٢٦ – لقراءة المزيد يرجى الإطلاع على المؤلف الآتي:
Seth G. Jones, "Fighting Networked Terrorist Groups: Lessons from Israel", Studies in Conflict and Terrorism, By RAND Corporation, Arlington, Virginia, USA – Security Studies Program, Georgetown University, Washington, DC, USA – 30:281–302, (2007).

٢٧ – للوقوف على نموذج من طريقة التفكير هذه ، يرجى الإطلاع على كتاب شلومو ساند "اختراع الشعب اليهودي" المترجم من العبرية بعنوان "متى وكيف اخترع الشعب اليهودي" . وتجدر الإشارة إلى أن شلومو ساند قد أهدى كتابه إلى "ذكرى كل من اللاجئين الذين وصلوا إلى تلك الأرض ، وأولئك الذين أجبروا على مغادرتها" . المصدر:
Shlomo Sand, "The Invention of the Jewish People", Verso Books, London (2009). عنوان الكتاب باللغة العبرية "Matai w'ekh humtza ha'am hayehudi?"
المثال الآخر هو البروفيسور آفي شلايم . انظر بصفة خاصة موجز المحاضرة التي ألقاها يوم 20 اكتوبر (تشرين الأول) 2010 في الجمعية الملكية للشؤون الآسيوية .
"Reflections on the Israeli–Palestinian Conflict". Asian Affairs, vol. XLII, no. 1, Mars 2011.

٢٨ – Uri Avnery, "Count me Out", Gush Shalom, October 31, 2009
www.gush-shalom.org

٢٩ – Lewis Carroll (Charles Lutwidge Dodgson), "Alice in Wonderland", 1865

٣٠ – لقرائة تحليل مفصل حول هذا الموضوع يرجي الإطلاع على المقال التالي:
The Israel Lobby, and U.S Foreign Policy" – By John J. Mearsheimer and Stephen M. Walt, "
John F. Kennedy School of Government, Harvard University – March 2006.
http://web.hks.harvard.edu/publications/workingpapers/citation.aspx?PubId=3670

٣١ – Tony Judt, "Israel: The Alternative", New York Review of Books, 23 October 2003. Quoted from Benny Morris, One State, Two States: Resolving the Israel/Palestine Conflict, Yale University

Press, New Haven, Connecticut (2009), p. 9. Tony Judt passed away in August 2010 as these lines were written. توفي توني يوت بينما كانت تلك الأسطر قيد الكتابة .

٣٢ – Ibid p. 165

٣٣ – من المهم بمكانة أن نذكر بأن التهديد النووي الذي تلوح به اسرائيل ضمنا أو صراحة هو ابتزازأو رادع دون أن يكون موجها فعليا باتجاه بلد ما في منطقة الشرق الأوسط . غير أنه يضمن لإسرائيل مقعدا في الصف الأمامي ضمن الأمم أعضاء النادي النووي . كما أنه يشكل تهديدا فعالا للحكومات العربية ، فضلا عن كونه فزاعة واضحة لمصالح حلفاء تلك الحكومات الإستراتيجية في المنطقة .

٣٤ – للوقوف على مختلف مراحل مفاوضات السلام في الشرق الأوسط بما في ذلك مفاوضات الوضع النهائي بين الفلسطينيين والإسرائيليين بشكل تحليلي عميق وعرض ممتاز ، يشار إلى الكتاب التالي : (المفاوضات الخفية: اللجوء إلى السرية خلال مراحل مفاوضات السلام في الشرق الأوسط).
"Back Channel Negotiation: Secrecy in the Middle East Peace Process", by Anthony Wanis-St.John – Syracuse University Press (2011).

٣٥ – اسمه الفعلي هو محمد ووالده عبدالكريم ، وكان له شقيق اسمه مُحَمَّدْ (بفتح الميم الأولى) . ولكن الأميراشتهر باسم عبدالكريم . وسنستمر على تلك التسمية منعاً للالتباس

٣٦ – Zakya Daoud – "Abdelkrim: Une épopée d'or et de sang", Séguier, Paris 1999

٣٧ – أنظر جريدة "الحياة" البيروتية بتاريخ ٧ يونيو (حزيران) ١٩٦٢

٣٨ – كريم ثابت – "عشر سنوات مع فاروق" – مذكرات كريم ثابت ، الجزء الثاني ، صفحة ٥٦ – دار الشروق ، القاهرة ، يناير ٢٠٠٠

٣٩ – ا لخطابي بطل تحرير المغرب" ، بقلم عزيز مهيدي جريدة "كل شيء" – تورونتو – كندا ، العدد ٦٧ ، ٢٣ يناير – ٥ فبراير ١٩٩٥.

٤٠ – قام الوطنيون المغاربة بتأسيس هذا المكتب في القاهرة للتعريف بقضايا بلادهم الواقعة تحت الإستعمار الفرنسي . وكان من بينهم الحبيب بورقيبة الذي أصبح رئيسا لوزراء بلاده ثم رئيسا للجمهورية ، والحبيب ثامر (الذي قتل في حادث سقوط طائرة في الباكستان) ، والرشيد ادريس الذي أصبح وزيرا في تونس فيما بعد ، وحمادي بدرة (الذي أصبح سفيرا لبلاده فيما بعد في سوريا وإيطاليا والفاتيكان) ، والطيب سليم (مندوب تونس لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة فيما بعد) والزعيم المغربي علاّل الفاسي (رئيس حزب الاستقلال) ، والأستاذ محمد العربي العلمي الذي أصبح سفيرا في مصر ، ومحمد بن عبود (الذي قتل في نفس حادث الطائرة الذي قتل فيه الحبيب ثامر) عن المغرب ، وابراهيم طوبال عن الجزائر ، وغيرهم من فضلاء ومجاهدي تلك البلاد

٤١ – كريم ثابت – عشر سنوات مع فاروق" – مذكرات كريم ثابت – صفحة ٥٤ – ٥٧ الطبعة الثانية – دار الشروق ، القاهرة – ٢٠٠٠

٤٢ – الأمير عبد الكريم الخطابي بقلم الحسن محمد علي الطاهر – جريدة " الشرق الأوسط " – لندن – ٢٤ يونيو (حزيران) ١٩٩٣

٤٣ – أمير الريف والأدهل بقلم فاروق لقمان – جريدة " الشرق الأوسط " لندن – ١١ و ١٢ يوليو (تموز) ١٩٩٣

٤٤ – "الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين : مذكرات رشيد الحاج ابراهيم ١٨٩١-١٩٥٣ – مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت ، يوليو (تموز) ٢٠٠٥.

٤٥ – Avi Shlaim – "The Rise and Fall of the All-Palestine Government in Gaza", Journal of Palestine Studies, vol.20, No. 1 (Autumn, 1990), pp. 37-53.

٤٦ – نقّادة هي البلدة الصغيرة الواقعة في صعيد مصرالتي قام فيها سير فلندرز بيتري ، "أبو علم المصريات" ، بأعمال التنقيب وفق اسلوب علمي دقيق بحثا عن الآثار الفرعونية عام ١٨٩٤ . وقد ترك سير بيتري الذي أمضى أربعون عاما في البحث عن الآثار الفرعونية في مصرترك أثرا لا يمحى على "علم المصريات" إلى يومنا هذا

٤٧ – "عبد الله التل: بطل معركة القدس" من تأليف الدكتور أحمد يوسف التل – صدرعن دار الفرقان في عمان عام ١٩٩٩ استنادا إلى كتاب القائد عبد الله التل الأصلي حول هذا الموضوع مع التصرف والذي صدر في القاهرة عام ١٩٥٩ تحت عنوان ."كارثة فلسطين ".

© Eltaher.org

٤٨ – نشر الكاتب الإسرائيلي تزفي إلبيليج كتابا جيدا باللغة العبرية عن حياة الحاج أمين الحسيني بعنوان "المفتي الأكبر: الحاج أمين الحسيني ، مؤسس الحركة الوطنية الفلسطينية" . ورغم وقوع بعض الأخطاء في الترجمة وفي نقل بعض الأسماء من العربية إلى العبرية فالإنجليزية بالإضافة إلى تكراربعض التعليقات غير الدقيقة حول علاقة الحاج أمين بالمحرقة اليهودية خلال الحرب العالمية الثانية ، فإن الكتاب يغطي تاريخ الحاج أمين وعصره بطريقة جيدة

Zvi Elpeleg, "Mufti Ha-gadol" (The Grand Mufti: Haj Amin al-Hussaini, founder of the Palestinian National Movement). (Translated from Hebrew by David Harvey, Frank Cass, London (1993

صدر كتاب حديث بقلم إيلان بابي حول حياة مجمل أسرة الحسيني وزمانها بما في ذلك بالطبع الحاج أمين . ويعتبر هذا الكتاب أكثر ما نشر شمولا ودقة واتزانا :

Ilan Pappé – "The Rise and Fall of a Palestinian Dynasty: The Husaynis 1700- 1948", University of California Press, Berkeley, California (2010). First published in Hebrew as "Azulat Haaretz: HaHusaynim Biographia Politis, Bialik Institute, Jerusalem (2002).

قبل وفاته بسنوات قليلة اتفق الحاج أمين مع الصحفي السوري زهير ماردينى المقيم في بيروت حينئذ على وضع كتاب حول حياته . غير أن الحاج أمين غير رأيه وعرض على الماردينى أن يدفع له ما أنجزه من الكتاب وطلب منه أن يعيد إليه ما وضعه تحت تصرفه من مصادر. ويقول كاتب تلك السطور الذي كان شاهدا على المحادثة أن الماردينى بدى عليه أنه وافق ، ولكنه لا يعرف إذا كان الماردينى قد أعاد تلك المواد أو إذا كان الحاج أمين قد دفع له المبلغ المذكور حسب الإتفاق . هذا وكان الماردينى هو آخر شخص يرى محمد علي الطاهر لدى إصابته بالأزمة القلبية الثانية قبيل نقله إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت حيث توفي بعد أيام قليلة . وعندما قامت أرملة أبو الحسن بحصر وحفظ أوراق زوجها وأرشيفه في الصناديق لاحظت أن ملف الحاج أمين الذي كان يحتفظ به قد اختفى !

٤٩ – محمد علي الطاهر – "نظرات الشورى" ، مطبعة الشورى ، القاهرة ، ١٩٣٢ صفحة ٢٥٢

© Eltaher.org